بلال فضل

ما فعله العيان بالميت

وقصص أخرى



دار الشروق

بـــلال فضـــل

مـا فعلـه العيـان بالميت

وقصص أخرى

دار الشروق

ما فعله العيان بالميت
بلال فضل
تصميم الغلاف:
الطبعـة الأولـى ٢٠٠٨
الطبعـة الثامنـة ٢٠١١
تصنيف الكتاب:
٨ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com
رقـم الإيداع ١٣٦٣١/٢٠٠٨
ISBN ٩٧٨-٩٧٧-٠٠-٢٤٦٣-١

إلى داليا.. التي أموت فيها وأحيا لها
لعل الله يجعل يومي قبل يومها
أو في نفس يومها... إن أمكن
وإلى بهجتي.. عشق التي اخترت أن
أقضي باقي مدة العقوبة في عشقها.

أجدع من أي مقدمة

«أنا باضحك من قلبي يا جماعة
مع إني راح مني ولاعة
وبطاقتي في جاكتة سرقوها
وغَلاسَة كمان لهفوا الشماعة
بقيت أرجف م السقعة.. لكن باضحك
والضحك ده مزيكا.. تحرم على ميكانيكا
اضحك ع الشيكا بيكا
هاه هاه هاه.. ع الشيكا بيكا

* * *

أنا راح مني كمان حاجة كبيرة
أكبر من إني أجيب لها سيرة
قلبي بيزغزغ روحه بروحه
علشان يمسح منه التكشيرة
ادعوا له ينساها بقى ويضحك
الضحك ده مزيكا.. تحرم على ميكانيكا
اضحك ع الشيكا بيكا
هاه هاه هاه.. ع الشيكا بيكا

* * *

شيكا بيكا وبولوتيكا.. ومقالب أنتيكا
ولا تزعل ولا تحزن.. واضحك برضه يا ويكا
هاه هاه هاه.. ع الشيكا بيكا

* * *

هتقول لي الشيكا بيكا إيه هيّا
هي الحركات اللي مش هيّا
الفُرقة والحُرقة والغَرقة
والزومبة في البومبة الذرية
فبدال ما نطق يا وله.. لأ.. نضحك
دا الضحك ده مزيكة.. تحرم على ميكانيكا
اضحك ع الشيكا بيكا
هاه هاه هاه.. ع الشيكا بيكا
ع الشيكا بيكا
صلاح وكمال وزوزو

«زبادي» التي حال بيني وبينها الشات

«حزن البشر.. دا حزننا»

على سطر الشات الذي يمرق سريعًا في قناة ميلودي الغنائية طالعني اسمها فأخرجني من أفكاري الخبيثة السارحة في عُري الكليبات.

كان اسمها ملفتًا وطريفًا.

«زبادي».. هكذا اختارت أن تسمي نفسها.. تمامًا كما اختارت أن تبدأ رسالتها الأولى على سطر الشات قائلة للموجودين عليه: «هاي إزيكو أنا زبادي.. حابّة أتعرف عليكم». لم ترحم الردود السخيفة لطفها الذي بدا جليا برغم كلماتها المقتضبة.. سريعًا انهالت عليها مطارق الغلظة والبذاءة: «زبادي ممكن أدوقك.. زبادي انتي بتتاكلي.. زبادي انتي كاملة الدسم.. زبادي أنا عسل ممكن تقلبيني فيكي.. زبادي إيه ميّتك».

استفزتني سخافة الرسائل التي ـ كعادتنا ولن نشتريها ـ تعاملت مع زبادي على أنها بائعة هوى لمجرد أنها اختارت لنفسها اسمًا شقيًّا، أو إن شئت الحقيقة لمجرد أنها قررت أن تدخل الشات.. رغم أنه شات يذاع على قناة فضائية غنائية يراها الملايين وليس شاتًا مغلقًا في موقع من المواقع المشبوهة إياها.. لكن ماذا تقول لذكور جائعين تتحرك غرائزهم بمجرد قراءة تاء التأنيث فما بالك وهي متحركة فعلا بفعل ما يندلق على أبصارهم من أفخاذ وسواعد وزنود مصرية ولبنانية وخليجية.

لحظة بعد أخرى توالى مرور الرسائل التي تنهش «زبادي».. انتظرت ردها، ليس لأعرف لونها أو نظامها أو «ميّتها» كما فعل مرسلو الرسائل، بل لأعرف كيف ستستقبل كل هذه الكمية من الحقارة التي تفجرت لمجرد أن بنتًا غلطت وأرسلت رسالة تنضح باللطف، فأصبحت رغمًا عنها صيدًا مشروعًا للذكور المستثارة المتحفزة على زراير الموبايلات، كل هؤلاء كيف سترد زبادي عليهم؟ هل ستلقنهم درسًا لن ينسوه؟ هل ستنهار أمام حقارتهم؟ هل ستُذكرهم بالله كما تفعل عادةً البنات المصدومات مما يتلقين من حقارة؟

لفترة من الزمن لم ترد زبادي... لعلها صُدمت بهذه الردود السخيفة فقررت أن تترك الشات وتبحث عن مكان آخر تتعرف فيه على إنسان لا يرغب في أن يأكلها أو يذوقها.. لكن الردود السخيفة لم تتوقف:

«إيه يا زبادي رحتي فين».

«أكيد دخلت التلاجة عشان الدنيا حر».

«شكلها خافت تتاكل».

«لازم تكون دخلت التلاجة.. مش اتفتحت».

كان صعبًا عليَّ أن أحتمل الأمر أكثر من هذا.. كنت قد توقفت منذ فترة عن دخول الشات مكتفيًا بقراءة رسائله لتزجية أوقات الفراغ التي لا تنتهي.. قررت أن أتضامن معها.. لست أدري لماذا.. لكنني تضامنت.. وأنا الذي جبته لنفسي!

دون أن أفكر أرسلت إليها رسالة تحمل تعاطفي الإنساني الدائم مع كل شخص يريد أن يعامله الآخرون بشكل لطيف.. كأبسط حق يطلبه البشر من البشر.. لا تسلني لماذا فعلت ذلك.. ربما لأنني وقتها كنت في لحظة ضعف وأنا قلما أفكر إبان لحظات ضعفي.. ربما هي الشهامة التي طالما جابتني ورا.. ربما... المهم أنني تضامنت وخلاص.

بعد لحظات من إرسالها ظهرت رسالتي المتسرعة على الشاشة:
«ابن زيدون: زبادي مالكيش دعوة بردودهم السخيفة..دي ناس فقدت الإحساس».
ألم أقل لكم إنني أنا الذي جبته لنفسي.. كل ذلك لأنني لم أستمع إلى حكمة الأجداد التي نهتنا بأننا لن نسْلَمَ من الأذى عندما نمشي ورا العيال..
«يا ابن زيدون أنا المعري.. ممكن تغطيني».
«بطل نحنحة يا ابن زيدون يا (...) أحسن اقول لابوك الحاج زيدون».
«يا ابن زيدون مش ناقصينك.. خلي زيدون يـ...».
أفاقتني الرسائل، التي حذف الرقيب على الشات كلماتها الخارجة، من غلبة مشاعر التعاطف التي لا أدري كيف أصبت بها وأنا الخبير بأحوال الدنيا.. لمت نفسي لأنني جعلت من نفسي موضع السخرية لكائنات تافهة كهذه.. كان ينبغي أن أتوقع أن تخرج تلك المخلوقة اللطيفة من الشات فورًا بعد كم المضايقات التي تعرضت لها.
وأنا أضع يدي على زرار الريموت لكي أتحول إلى قناة أخرى هروبًا من حرقة الدم والاستفزاز الذي يحثني على الرد على هؤلاء السفلة.. انتظرت قليلا لأقرأ رسالة حقيرة داهمتني: «هو زيدون ده اسم أبوك ولا أمك».. اندلعت حريقة في دمي عندما أتى بسيرة أمي هذا الوغد الحقير.. وسوس لي الشيطان بأن أثأر لأمي فأرد عليه بشتيمة تخص مناطق حميمة لأمه.. لكنني لم أفعل ليس خشية من الله بل خشية من أن يذهب إرسالي للشتيمة سدى إذ يبدو أن رقابة الشات كانت وقتها صاحية وحاضرة.. ربما يسعفني الحظ فيغيب مسئول الرقابة أو ينشغل للحظات.. وهو ما يجعل رسائل نادرة تفلت من سيف رقابته.. كتلك الرسالة التي قرأتها قبل ذلك على نفس الشاشة عند إذاعة حوار مع مطربة مشهورة.. حيث مرقت رسالة شات تقول لها بكل حب: «الصقر الجريء: فلانة إنتي زي القمر.. باحبك موت وانتي راكبة العجلة.. ممكن أ...».. ظلت الرسالة بكلمتها البذيئة الصريحة بكل حروفها تذاع على الشاشة لثوان لكنها أصبحت حديث مصر لساعات طوال.. برغم أنه تم التنبه لها سريعًا ربما بعد عودة مسئول الرقابة من الحمام أو ربما من إجرائه مكالمة نحنحة مع خطيبته.. يومها ظلت رسائل الشات تتوالى: «أنا باطلب نفس الطلب اللي طلبه الصقر الجريء.. لو ما كانش يضايق الفنانة».. «يا صقر يا جريء لما تقابل فلانة تعالوا عندي في البيت في عابدين جنب عمر افندي».. «يا صقر يا جريء اسأل الفنانة أم عجلة مش محتاجة حمامة سلام».
خفَّف تذكر تلك الواقعة المسخرة من غيظي فقررت ألا أغامر بثمن هذه الرسالة وأنا أعلم أنها حتمًا ولزمًا لن تذاع.. ليس بيدي سوى أن أتجاهل ذلك الحقير الذي جلب لي تعليقه الساخر مزيدًا من السخرية من رسائل أوباش آخرين.. لعنهم الله هؤلاء الكلاب.. انحطاطهم كاد يُخرج ما أكتمه بداخلي من انحطاط.. ليس أمامي سوى أن أغير القناة فعلا وفورًا.. قبل أن أدوس على زر التغيير بجد هذه المرة التقطتني رسالتها كسنارة انتشلتني من الغرق في بحر إحباطي.. أو هكذا ظننت عندما وجدت اسمها يهل على الشاشة:
«زبادي: إزيك يا ابن زيدون...».
لم أكد أكمل قراءة باقي الرسالة حتى اكتشفت أن زبادي انتشلتني من بحر إحباطي لتلقي بي في محيط أحزانها.. وليتها ما فعلت:
«زبادي: إزيك يا ابن زيدون.. أنا وحيدة!».
دون أن أفكر كثيرا كتبت أصابعي الرد وأرسلته سريعًا:

«ابن زيدون: آآآآآآآآاااااااااااااااااه.. ومين سمعك يا زبادي!».
وسريعًا كتبوا وأرسلوا وقاطعوا وشوّشوا وسخّفوا:
«يااه.. الحقوا ابن زيدون بيتقطّع يا رجالة الشات».
«إيه يا ابن زيدون.. هو زيدون بطّل يضبّطك».
«زبادي: هل هناك أمل في أن نجد من يفهمنا في هذا العالم؟».
«سبع المنيرة: أكيد يا زبادي.. ممكن تلاقي علبة لبن تفهمك».
«ابن زيدون: أنا آسف.. كان نفسي نتكلم في جو نضيف.. إنتي عندك كام سنة؟».
«علوش: قصدك تسأل عن تاريخ صلاحيتها».
«أبو كرتونة: إيه انت قلقت ولا إيه».
«ملك البحار: هي لو مفتوحة.. هتبوظ.. إنما شكلها لسه مبرشمة».
«زبادي: متخيل قد إيه العالم اللي احنا عايشين فيه بشع؟!».
«ابن زيدون: هل حد يرضى فيكو يتقال لأخته الكلام ده؟!».
«أنا أختي فاكهة مش علبة زبادي».
«والله.. أختك فاكهة.. نوعها إيه.. هل هي بطيخة؟».
«زبادي: نفسي أقابل شاب يعاملني على إني بني آدمة!».
«بطيخة مين يا ابن المشقوقة».
«وبعدين في اللخبطة دي.. بني آدمة ازاي.. إنتي مش قلتي انك زبادي.. ما ترسي لك على طبق».
«ابن زيدون: صعب تطلبي من الحيوان إنه يبقى بني آدم».
«تصدق إنك راجل مهزأ يا ابن زيدون وأنا شكلي كده ها... انت وابوك زيدون الملعوب في أساسه».
«حيوان مين يا... ياللي بتتدق...».
«زبادي: أنا مضطرة أمشي عشان بجد أصبت بالغثيان!».
«غثيان ليه.. هو انتي مش مبسترة».
«يلّا في ستين داهية.. وسلمي لي على جهينة».
«ابن زيدون: استني ما تمشيش.. أنا بجد نفسي أتعرف عليكي».
«زبادي: أنا لازم أمشي.. يا خسارة على شباب مصر!».
«ابن زيدون اتحلق له يا رجالة».
«يا زبادي مصر هتفضل غالية عليَّ».
«مش عيب تبقى اسمها زبادي.. وهي اللي تِدْلُقك».
«ابن زيدون: زبادي.. إنتي مشيتي بجد؟!».
«الزبادي خلص.. أجيب لك لبن رايب».
«يا ابن زيدون.. صحتك في العلبة دي».
كنت مجبرًا على أن أتحمل طوفانًا من الانحطاط كان يداهمني بضراوة.. تحملته صابرًا لعلها تعود.. لعلها تتحمل قليلا وتتحدث معي فقط لتعطيني أية أمارة ألتقي بها عن طريقها.. لعلها تدلني ولو بالرمز على مكان نلتقي فيه.. هاتف تكتب أرقامه مشفرة وأفك شفرتها لأتحدث معها.. موقع محترم على النت ندخل عليه سويا لنتبادل دردشة خاصة توصلنا إلى بعضنا.. لم أعد أرى أي

كلام على الشاشة فقد عميت عيناي عن أن ترى شيئا سوى اسمها.. زبادي.. زبادي.. زبادي.. كلما طال انتظاري لها كان حنيني إليها يتوحش.. كان حنينًا جارفًا ربما أنا وحدي الذي أفهمه لأني أنا وحدي الذي انجرفت إليه..

ماذا فعلوا بك يا زبادي.. أين أنت الآن؟!

كانت زبادي وحيدة.. وأنا كنت ولا أزال وحيدًا.. كان يمكن لنا أن نلتقي لأضع همي على همها.. كان يمكن لوحدتنا أن تنتهي.. كان يمكن لنا أن نكون مع بعضنا شيئًا نظيفًا.. كان يمكن لنا أن نجد عزاءنا لدى بعضنا.. كان يمكن أن تكون زبادي هي الحل.. لكنها لم تعد ثانية إلى حيث التقينا.. هربت ببراءتها من المستنقع الذي انزلقت رجلها إليه عن غير قصد.. لعلها دخلت هنا هربًا من غرف الدردشة المغلقة التي يكون السؤال الأول فيها: «إنتي بنت بجد؟».. والسؤال الثاني: «عندك كاميرا؟».. لعلها أرادت أن تبث أشجانها لأحد لا يسألها: «عشان أتأكد إنك بنت قولي لي هو مقاس البرا كام؟».. لعلها أرادت أن تحكي عن هزيمتها لشخص لا يحكي لها عن آخر فيلم جنسي شاهده ويعرض عليها إهداءها مَقْطَعًا منه.. لعلها أرادت فقط أن يقول لها أحد: «لذيذ اسم زبادي ده.. بس انتي اسمك الحقيقي إيه؟».. لعلها أرادت فقط أن تأوي إلى أي جبل أو تلة أو هضبة أو حتى صخرة عالية تعصمها من الماء.. تمامًا كما أردت أنا أن آوي إليها هاربًا من كآبتي ووحدتي..

لكنهم لم يُخلُّوا بيني وبينك يا زبادي..

«زبادي وابن زيدون.. إنتو رحتوا فين.. ما تيجوا أضربكوا في خلاطي».

«زبادي.. سيبك من ابن زيدون.. شكله واد عجلة».

«يا ابن زيدون.. للأسف اتضحك عليك.. زبادي طلعت راجل اسمه فؤاد.. وبيغني في الموسيقى العربية كمان».

«ابن زيدون.. زبادي جوه على سريري.. أغرف لك».

آآآآه.. حال بيننا موج الشات يا زبادي.. فدعيني أغيّر القناة قبل أن أكون من المغرقين.

ما فعله العيّان بالميت!

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم
استغاثة مقدمة للسيد الأستاذ مدير نيابة الجمالية.
مقدمه لسيادتكم المواطن محمود عبد الكريم حسنين وابنته منى محمود عبد الكريم حسنين ضد قريبنا ابن شقيقتي المدعو مصطفى علي رضا الساكن بحارة السماعين من شارع الزمر بالعمرانية. والذي بيننا وبينه خصومة في القضية رقم ٥٦٩٠ لسنة ٢٠٠٣ حيث تم الحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر مع النفاذ بتهمة نبش قبور وهتك حرمة موتى. ولكنه هرب سعادتك من الحكم حتى تاريخه. ومنذ ذلك الحين وهو يقوم بتهديدي بالانتقام بالقتل أنا وابنتي، وهو ما جعلنا نعيش أنا وهي في رعب دائم.
لهذا ألجأ لسيادتكم ملتمسًا صدور أمر من سيادتكم بضبط المتهم وتنفيذ الحكم مع أخذ تعهد عليه بأنه لو حدث لي أي ضرر يكون هو الفاعل وإذا ما حدث لي أي مكروه يكون هو المسئول.
جعلكم الله عونًا لنا ولكل الغلابة.

(٢)

في بداية الأمر لم يلفت صراخ منى ولطمها انتباه أحد من زوار المدافن. ليس لأن الصراخ واللطم لم يعودا يلفتان النظر في هذه الأيام، بل لأنها كانت ببساطة تصرخ وتلطم وتصوط بكل ما أوتيت من قوة وهي داخل تربة أخيها. لذلك لم يعطها أحد اهتمامًا خاصّا في البداية، خاصة أننا في نهار الجمعة حيث تشغي المدافن بالسيدات المتشحات بالسواد والرافعات عقيرتهن بالبكاء على الأحباب الذين رحلوا وتركوا لهن وجع القلب والحسرة وخيبة الأمل و«كوم لحم».
فى البداية جاء صراخ منى مثيرًا للشجن ومساهمًا في إضفاء المزيد من الكآبة على مكان لا تنقصه الكآبة أبدًا. السيدات المتواجدات بالقرب من التربة التي انبعث منها صويط منى نظرن إلى صويطها بالكثير من التقدير، لأن صويطها المتصاعد شيئًا فشيئًا يشي بوفاء أصبح نادرًا في زمن يأكل فيه الأخ ابنه، بعد أن ولَّى ذلك الزمن الذي يأكل فيه الأخ أخاه، تعالى صوت الصويط إلى حد جنوني حوّل فورًا مشاعر التقدير إلى مشاعر خجل تملكتهن من عدم همتهن في البكاء والصويط، كأنهن لا يمتلكن نفس لوعـة الغياب التي تمتلكها هذه السيدة التي عرفوا أن اسمها منى منذ انبعث صوتها هادرًا: «يا حوستك يا منى.. يا وكستك يا منى.. يا خيبتك يا منى.. يا لهويييييييي».
كأن منى صبت الزيت على نيران الحزن المشتعلة في صدور الزائرات فعلَتْ أصوات الولولة والعويل واليالهوييي من أرجاء المدافن بحرقة لا مثيل لها، لكن صوت منى ظل الأعلى في حزنه وحرقته وحدته، بات واضحًا أن منافستها أمر مستحيل خاصة أنها فجأة وفي حركة من طرف واحد قررت ألا تكتفي بالولولة واللطم، وخرجت من باب التربة التي كان صوتها ينبعث من داخلها لتجري على غير هدى في طرقات المقابر الضيقة مثيرة خلفها الغبار والدهشة:
«الحقونيي يا نااس.. يا لهوييي.. الحقوني يا خلق.. حسبي الله ونعم الوكيل»!!
لو كان الوقت ليلا لظنها الناس تجري هربًا من عفريت طلع لها أو ثعبان باغتها، لكن جريها المتخبط منكوشة الشعر زائغة العينين كان مثيرًا لمشاعر الدهشة أكثر من إثارته لمشاعر الجدعنة.
عندما لم يلحقها أحد تحول الناس والخلق فورًا إلى ولاد كلب: «الحقوني يا ولاد الكلب»، ولكي لا

يتحولوا إلى ولاد وسخة كما بدا جليّا من نظراتها العدائية المنبئة بشتائم قبيحة، لحقها الأقرب إليها ليمسكوا بها ويطلبوا منها أن توحد الله وتصلي على النبي لأن الحزن في القلب.
«حزن في القلب مين يا ولاد الوسخة.. بعد تربة أخويا ما اتقلّبت!».

(٣)

لم يكن أهل عبد الحميد عبد الغفار وكيل أول وزارة الإسكان بحاجة إلى فضيحة إضافية كالتي حدثت لهم يوم دفنه رحمه الله مطرح ما راح. كأن موته بالسكتة القلبية في قفص المحكمة التي جرسته على رءوس الأشهاد بتهمة نهب المال العام لم يكن كافيًا.
وقتها كان أهله المتحلقون حول قبره منشغلين بمحاولة فهم كيف خدعوا طويلا في أبيهم الذي كان الجميع يحلفون بشرفه، بينما كان التُّربي يستعد مع صبيه لإدخال جثمان رب العائلة إلى قبره، فجأة داهمتهم تلك السيدة كأنها قضاء مستعجل جديد، منقضة بعزم ما فيها على التربي لتجذبه من داخل التربة وسط ذهول الجميع، يداها المتخشبتان وعيناها الجاحظتان والزبد المتطاير من فمها وعروقها النافرة كل ذلك كان كافيًا ليمتنع الجميع عن محاولة فك التربي من بين يديها أو من بين أظافرها بمعنى أصح. كان المرحوم قد سقط على التراب وتدحرج على سلالم التربة نزولا إلى داخلها وسط تخشب الجميع فزعًا، لم يبادر أي منهم لاستنقاذ فقيدهم الغالي إلا عندما فوجئوا بصبي التربي يطأ جثمان الفقيد بقدميه المتربتين لكي ينقض على السيدة من الخلف محاولا إفلات معلمه من تحت يديها.
«لا إله إلا الله.. في إيه يا ست انتي؟»، كان هذا كل ما قدر الله للتربي أن يقوله وهو يحاول عبثًا أن يفلت رقبته من قبضتها.
«إنت يا حيوان انت مش تشوف دايس على إيه!».
.. هكذا قال آل عبد الغفار لصبي التربي الذي نال في ثوانٍ ضربًا أكثر من الذي ناله معلمه الذي اكتفت السيدة بمحاولة خنقه. لم يفهم أحد منهم لماذا تحاول هذه السيدة منع التربي من إكمال مهمته المقدسة في إكرام الميت. لم يصرح أحدهم بما دار في خياله من تفسيرات لحظية، كأن تكون زوجته في السر تحاول منع دفنه من باب أنها لم تستوعب الصدمة بعد، أو أن تكون زوجة التربي نفسه تحاول التعدي عليه أثناء تأدية عمله، أو أن تكون واحدة من مجانين الترب ارتبطت بعلاقة غير شرعية مع التربي وتحاول إقناعه بعمل اختبار الدي إن إيه.
المجال متسع لتفسيرات عبثية لا أول لها ولا آخر، لكن السيدة نفسها قررت أن ترحمهم من مزيد من البهدلة عندما أرخت قبضتها قليلا من على رقبة التربي وسألته بصوت يهدر بالغضب:
«وديت أخويا فين يا حرامي؟».
«أخوكي مين يا ست انتي؟!».
«هتستعبط يا ابن الكلب.. قوام نسيتني!».
ربما أحست السيدة أن جملتها لن تكون كافية لتذكير التربي بها فأشفعتها بقلم على صدغه دوت له أرجاء التربة، لتعود الذاكرة فورًا إلى التربي الذي قال لها فجأة كأنها معرفة قديمة:
«عيب كده يا ست منى!».
لم يكن الوقت مناسبًا للعتاب من وجهة نظرها على تناسيه لها، فقد اختارت أن تعود لإطباق يديها على رقبته من جديد:
«ومش عيب إنك تبيع أخويا يا واطي.. إيش حال لو ما كنتش بادّيك فلوس كل زيارة. وديني لأدفنك هنا النهارده».

في لمح البصر أصبح جثمان عبد الحميد بيه الملقى على سلالم المدفن مسرحًا لصراع مرير بين السيدة والتربي. لم يعد الذهول رد الفعل الملائم الآن. لا بد أن يتدخل أحد لوقف المهزلة. نظر الجميع إلى عبد السلام باشا الذي كان حتى لحظة نظرهم قد نسي كونه لواء بوليس تخوله سلطته الكثير ليفعله، ذهول الفضيحة الجديدة هيج عليه أحزان الفضيحة القديمة وذكَّره بشماتة زملائه وتجريس الصحف ومستقبله الذي صار على المحك، لم يكن الوقت مناسبًا لكي يغامر بالمزيد من التهزيء لو قررت هذا السيدة الطائحة في المقبرة كثور هائج أن تسبه أو تضربه بالقلم أو تبصق عليه. لذلك زاد ذهول الحاضرين وهم يرونه يقترب من السيدة على مدخل سلالم التربة كأنه جرسون إنجليزي ليربت على كتفيها بمنتهى التهذيب قائلا لها بصوت حرص على أن يبدو حنونًا:
«والنبي يا ست منى لو ليكي حاجة عند الراجل ده هنخلصها لك. أنا لواء شرطة وممكن أقف جنبك في أي حاجة. عندنا ميت عايزين ندفنه».
لم تكلف نفسها عناء النظر إلى عبد السلام بيه بجلالة قدره. لكنها أرخت يديها مجددًا من على رقبة التربي كأنها تعلن قبولها التفاوض:
«وديني ما انا سايباه إلا لما يقول باع أخويا بكام».
لم يشد التربي القدر اللازم من أنفاس الهواء، كأنه حريص على ألا يضيع حقه في الدفاع عن نفسه قبل أن تعود ثانية لخنقه، أخذ يزعق ناظرا لها بعينين مستعطفتين:
«والمصحف يا ست الكل ما بعته ولا جيت جنبه. أبيعه ازاي وهو مدفون من سنتين.. لا مؤاخذة يعني زمانه اتحلل.. ده ما يجيبش تمن فتح التربة».
الغبي. هل هذا كلام يقال لسيدة ملتاعة على أخيها. يستحق إذن أن تنقض بأنيابها على رقبته لتعضه حتى انبجس الدم من عروق رقبته، مُجبرةً الجميع بمن فيهم عبد السلام بيه على أن يرجعوا خطوتين لا إراديتين إلى الوراء.
دوى صوت التربي في المقبرة لينهي ذلك المشهد الدموي ولينهي ذل عبد الحميد بيه المفضوح حيًّا وميتًا ومدفونًا:
«خلاص خلاص والله العظيم هاقول على كل حاجة».

(٤)

مديرية أمن القاهرة
قسم منشأة ناصر
نقطة قايتباي
بتاريخ ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٣ بمعرفتي نقيب شاهين عبد الحميد رئيس النقطة أثبت الآتي: حيث حضرت لديوان النقطة المواطنة منى محمود عبد الكريم حسنين وأبلغتنا شفاهة بأنها حال توجهها لزيارة قبر شقيقها المتوفى إلى رحمة الله تعالى رمضان محمود عبد الكريم حسنين بمقابر الخفير بشارع جمال يوسف خلف مقابر الشهداء لاحظت بعض التغيير في سطح المدفن وعندما استفسرت من التربي المسئول عن المدفن المدعو عبد ربه أخبرها أن المدعو مصطفى علي رضا قريب المبلغة حضر إليه وقام بدفع مبلغ مالي له لكي يقوم بعملية تنظيف لقاع المقبرة ونزل التربي بالفعل وقام بذلك وأعطاه التربي بعد التنظيف عدد ١١ مسمار بلاتين وشريحة معدنية بلاتينية يقدر ثمنها بتسعة عشر ألف جنيه، حيث كانت المسامير والشريحة مركبة في القدم اليسرى لشقيقها المتوفى إلى رحمة الله تعالى وأخبرها التربي أن قريبه المذكور أعلاه أفهمه أن طلب تلك المسامير والشريحة جاء بناء على طلب والدها وأنها استفسرت من والدها عن ذلك فقرر لها أنه لم يطلب

ذلك وعليه حضرت للإبلاغ وإثبات الحالة واتخاذ اللازم فأمرنا بضبط التربي وقريبها المذكورين أعلاه.

....

هذا وبمناسبة وجود والد المبلغة المدعو محمود عبد الكريم حسنين أمامنا شرعنا في سؤاله فأجاب:
اسمي محمود عبد الكريم حسنين ٦٤ سنة بالمعاش ومقيم سكنًا ٥٤ شارع خليفة الجارحي منشية ناصر وأحمل بطاقة رقم ٧٤٩٠٣ قسم أول شبرا الخيمة.
س: ما هي معلوماتك بشأن الواقعة محل التحقيق؟
ج: إللي حصل إن ليَّ ابن اسمه رمضان وتوفي في حادثة من حوالي سنتين وأنا وأخته كنا بنزوره على طول بس أنا ركبي ما عادتش بتشيلني فبطلت أروح كتير.. لكن أخته كانت بتروح تزوره كل شهر أصلها كانت روحها فيه الله يرحمه، هو اللي كان مربيها، المهم سعادتك لما أخته منى راحت تزوره آخر مرة لقت التربة متغيرة زي ما يكونوا دافنين حد جديد، صوطت ولمت الناس وسألت التربي اللي قال لها إن ابن عمتها مصطفى الله يجحمه مطرح ما راح قال لها إني طلبت منه يفتح التربة ويطلع المسامير والشريحة اللي كان رمضان مركبهم في حادثة قبل ما يموت، جت تتخانق معايا وتقول لي كده يابه يهون عليك رمضان تبهدله وتنبش قبره، الصراحة لله ضربتها قلم عشان عيب تكلمني بالطريقة دي، خدت لي تاكس ورحنا الترب لقينا التربي بيأكد نفس الكلام. فرحت أنا ومنى عملنا محضر في القسم وده اللي حصل سعادتك.
س: هل توجد خلافات بينكم وبين المدعو مصطفى علي رضا؟
ج: خلافات ازاي يا باشا!! دا انا اللي مربيه ولحم اكتافه من خيري.
س: أجب على السؤال.. هل توجد خلافات بينكم وبين المدعى عليه؟
ج: لا يا باشا ربنا ما يجيب خلافات.
س: هل سبق أن طلبت من التربي الخاص بالمقبرة أو من ابن شقيقتك القيام بعملية تنظيف للقبر؟
ج: أطلب منهم ازاي يا باشا.. دا انا لو باموت من الجوع ما امدش إيدي على تربة ابني.. وبعدين سعادتك التربي ده كان طلب مني في آخر مرة رحت فيها بعض المبالغ عشان يعمل عملية تنظيف للتربة فأنا قلت له تنظيف إيه هو حمام. وقلت له ما يعملش أي حاجة إلا لما يقولي.
س: وهل طلبت من المدعو مصطفى علي رضا أن يقوم بعملية تنظيف؟
ج: لا أنا ما شفتوش بقالي تمان شهور. أصله واطي وبطل يزورني من ساعة ما بقيتش أخرج من البيت.
س: ملك مَنْ المدفن الموجود فيه نجلك؟
ج: ملك قريبنا المرحوم محمد علي حسنين. وكان مقطوع من شجرة ومن ساعة ما مات بقى المدفن بتاع عيلتنا ربنا يدي سعادتك طولة العمر.
س: ملك مَنْ المسامير التي تم تركيبها بقدم نجلك قبل وفاته؟
ج: عدم المؤاخذة السؤال ده غريب يا باشا.
س: أجب على السؤال.
ج: مش عارف يا باشا. بس ما دام ابني دفع فيها دم قلبه وسحب فلوس كان محوشها من شغله في الكويت تسع سنين. تبقى أكيد بتاعته ومش من حق حد ياخدها حتى لو كان أبوه اللي هو أنا سعادتك.
س: ما هو نوع الضرر الواقع عليكم مما حدث؟

ج: مش نَهَكوا حرمة ابني يا باشا. هى البلد دي لا عاد فيها أمان لا للحي ولا للميت! مش قصدي حاجة يعني يا باشا. بس احنا عايزين حاجة ابننا ترجع تاني تربته. دا بيجي لي كل يوم في المنام سعادتك ويقول لي كده يابه تسيبهم يسرقوني وأنا ميت. رجَّع لي حقي يابه.

(٥)

«من كان يصدق أن المدعوقة منى ستكون قوية الملاحظة إلى هذا الحد؟ وهل مخنا دفتر لكي نتذكر كيف كان شكل القبر بالتحديد قبل أن نفتحه؟ ولماذا كل هذه الفضائح والبهدلة من أجل حفنة مسامير في جسد من مات وشبع موتًا؟ وهل كانت اللبؤة أخته ستستريح إذا ظلت المسامير والشريحة مدفونة مع أخيها إلى الأبد؟ وهل كان المفروض أن تموت زوجتي لكي تستريح الست هانم وزوجها؟ أليس الحي أبقى من الميت؟ أمال قرايب إيه وزفت إيه بس».

مصطفى الذي صار منذ بلاغ منى المدعو مصطفى لم يترك زائرًا له في محبسه على ذمة القضية إلا وطرح عليه هذه الأسئلة مستحلفًا له بالله العلي العظيم أن يقنع منى بسحب بلاغها ويكفي ما حدث له من بهدلة لم يكن يستحقها.

«يعني هو أنا كنت سكرت بيهم ولا شميت ولا شربت حشيش ولا صرفتهم على النسوان.. دا انا عملت بيهم عملية لمراتي بدل ما تتلقح سنين مستنية دورها في معهد القلب وجبت شوية أدوية لنفسي بدل ما بادوخ عليهم في التأمين الصحي ومتعت عيالي شوية وإن كان على الفلوس اللي دخلت بيها مشروع أسحبهم واديهم لها بس تسحب البلاغ وترجعني لحضن عيالي.. مراتي مخببين عليها لحد دلوقتي عشان لو عرفت هتروح فيها وكل اللي دفعناه هيروح أونطة.. والله العظيم لو كنت أقدر أشوف سكة أجيب بيها فلوس العملية كنت عملت كده بس أعمل إيه يعني أقطع في لحمي عشان منى تستريح».

خوف مصطفى من أن يطمع فيه زملاء الحجز هو الذي كان يمنعه من البكاء وهو يتذكر ما حدث له، خاصة بعد أن رأى ما فعلوه بالتربي بعد أن بكى في أول ليلة له في الحجز ولم يكف عن الولولة طول الليل: «حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا أستاذ مصطفى يا ابن الوسخة.. الله يحرق اليوم اللي شفتك فيه.. خربت بيتي الله يخرب بيتك.. مين اللي هيشغلني تُربي تاني».

على الفور جاء رد منصور النشال ـ وكبير الحجز ـ منطقيّا على ولولة التربي:

«بس يا.. أمك، هو انت يعني كنت بتشتغل جراح.. ما أي تربة تلمك بعد ما تخرج.. قلبت دماغنا من الصبح.. أمال تربي ازاي بس يا ابن الزنانة.. دا انا من يوم ما شفت أبويا وهو مفروم على شريط القطر نسيت شكل الدموع.. وانت اللي بتشوف الموت كل يوم خمس ست مرات عمال تعيط زي نجلاء فتحي».

ليلتها لم يكف التربي عن البكاء ليس بسبب ما قاله له منصور بل بسبب ما فعله به منصور، ليلتها أيضًا لم يكف مصطفى عن الشكوى لغير الله، بينما دار حبل الكلام بين رفاق الحجز حتى الصباح عن الرجولة التي أصبحت «شاحّة» في هذا الزمن، والظروف التي أجبرت العيان على أن يفعل في الميت ما قاله المثل الشهير السائر بين الركبان، والرجالة النسوان الذين أصبحت دمعتهم قريبة، والفلوس التي غيرت الناس على بعضها، والست الواطية التي هان عليها أن تحبس قريبها علشان حبة مسامير.

(٦)

س: ما طبيعة عملك تحديدًا؟

ج: أنا أعمل تربي.

س: ما الذي حدث تحديدًا في مدفن عائلة عبد الكريم حسنين الذي تعمل فيه؟
ج: إللي حصل بالضبط إن مصطفى قريب الناس دي جالنا من حوالي أسبوعين قال لي عايزين ننضف التربة بتاعة قريبنا رمضان عشان في رجله مسامير والحاجات دي لازمانا وأبوه في المستشفى وعايزها عشان تتركب له بدل ما يشتري حاجات جديدة وكده يعني، فأنا قلت له ماشي ونزلت أنضف التربة وطلعت له المسامير والشريحة من جثة المرحوم رمضان واديتهم له عشان يديهم لخاله العيان وهو كان واقف معايا سعادتك.
س: ما سبب قيامك بأخذ تلك المسامير من جثة المتوفى؟
ج: أصل مصطفى عشان قريبه يعتبر صاحب المدفن ويقدر يعمل فيه اللي هو عايزه.
س: بما أنك قمت بنبش التربة هل قمت بتقاسم المسروقات مع المدعو مصطفى؟
ج: ما حصلش سعادتك.
س: ما عدد الأشياء التي قمت بفكها من جسد المرحوم؟
ج: تسعة مسامير وحتة حديدة أكبر شوية سعادتك.
س: ما قولك في ما تدعيه شقيقة المرحوم أن عدد المسامير كان أحد عشر مسمارا وليس تسعة كما تقول؟
ج: والمصحف كانوا تسعة بس... يمكن كان فيه مسمارين أنا ما شفتهمش ولا حاجة.. لكن والله العظيم اللي انا طلعتهم كانوا تسعة بس.. أنا مش باكذِّبها سعادتك بس أنا باقول على اللي انا شفته.
س: بكم تقدر قيمة تلك المسروقات؟
ج: ما اعرفش سعادتك. والنعمة الشريفة ما اعرف.
س: أنت متهم بنبش القبر من دون تصريح؟
ج: عملية تنظيف المقبرة ما بيتعملهاش تصريح ولكن بيتم فتح المقبرة وتنظيفها في حضور أحد أصحابها.
س: هل لديك سوابق؟
ج: لا.
س: هل لديك سوابق؟
ج: يا بيه أنا في حالي. وبقالي ييجي عشر سنين ما عتبتش بره التُّرب يا بيه. يعني أول ما أخرج من التربة أترمي في زنزانة. يرضي مين بس ده يا عالم؟! الله يحرقك يا أستاذ مصطفى يا ابن الوسخة. (حذفت الجملة الأخيرة من المحضر).

(٧)

لولا حب وكيل النيابة للظهور الإعلامي لما تحول مصطفى رضا إلى شخصية عامة. كان من الممكن أن يمضي في صمت كما يمضي إلى النسيان كل يوم العشرات من ضعاف النفوس مستورين بالحروف الأولى من أسمائهم ومهنهم وأعمارهم. كان يمكن أن يقال عنه «م. ر. ـ ٥٥ عاما ـ موظف بوزارة النقل» وخلاص. لكن حظه العثر أراد له أن يصبح أشهر خارج على القانون في مصر لعدة أيام. لم يفكر أحد في الفضيحة التي ستعود على أهل بيته، ولا بأن زوجته ستشاهد صورة زوجها في ورقة الجرنان التي لفت بائعة الخضرة «حاجة السلطة» فيها فلطمت من فورها ثم طلبت من شاب كان بالجوار أن يقرأ لها المكتوب تحت الصورة ثم سخسخت ثم أسعفوها إلى المستشفى في حالة حرجة.

لم يكن لمصطفى محامون يوعُّونه بحقه في منع تصويره في الصحف. ولذلك تفنن مصورو الصحف والمجلات في التقاط صور له من زوايا تظهره متجردًا من الآدمية. وعندما فشلوا في ذلك لأنه كان طافحًا بالبؤس وغلب الحال، اكتفوا بالتركيز على حالة الندم التي يغرق فيها. ملحق دموع الندم الذي تصدره صحيفة الجمهورية كان أول من انفرد بلقائه. (قال رئيس له في العمل يومها لمن حوله: «والله وأصبحت انفرادًا يا مصطفى يا قواد»).
مسئولو الملحق فرحوا بانفرادهم بمصطفى أيما فرح، أخذوه غلافًا للملحق وسموه حفار القبور. أخذ مصطفى في الصورة وضع النادم ورفع أصبعه السبابة وبدا أنه يحاول البكاء جاهدًا وعلى صورته جاء عنوان بالبنط العريض «حفار القبور يبكي: لعنة الله على الظروف». الصحفي الذي انفرد بالحوار حرص على أن يؤكد للقراء أن الفقر لا يجب أن يكون مبررًا للجريمة وأن مصر حافلة بملايين الفقراء الشرفاء الذين لا يلجئون لنبش قبور أهاليهم من أجل لقمة العيش. أخبار الحوادث لم تعتبر ما نشرته دموع الندم انفرادًا فقد نشرت حوارًا مع مصطفى وصفته بالسبق الصحفي، غلافها تصدرته صورة لمصطفى وهو يبكي بحرقة هذه المرة، كان مصور أخبار الحوادث أكثر صبرًا واجتهادًا على ما يبدو، هذه المرة وصفوا مصطفى بـ «لص الموتى»، وربما من باب الاختلاف جعلوا مصطفى خطرًا على موتى مصر، العنوان كان «عجائب آخر زمن: قبور المصريين في خطر». في مقدمة الموضوع تحدث كاتبه عن الزمن الذي انحدرت فيه الأخلاق إلى حد جعل الناس تنبش قبور أهلها جريًا وراء الطمع والدنيا، لكنه في نفس الوقت حرص على أن يؤكد أن ما حدث واقعة فردية لا تعبر عن الشعب المصري الذي يقدس الموتى ويعتبر القبور «خطًّا أحمر لا يجوز نبشه» (هكذا قال).
لا تدري هل كان هناك شيء ما في وجه مصطفى يجذب اهتمام الصحفيين ويغري المصورين بالتقاط صور نادمة له. إذ إنه ظل دونًا عن غيره من المجرمين على مدى ثلاثة أسابيع بطلا لصفحات الحوادث في شتى الصحف والمجلات. صحف الحكومة اعتبرته شخصًا مريضًا تجرد من أبسط مشاعر الآدمية وطالبت بتوقيع أقصى العقوبة عليه ليكون عبرة لمن يعتبر. صحف المعارضة اعتبرته إفرازًا طبيعيًا لسياسات نظام الحكم التي أفقرت المصريين وحولتهم إلى وحوش آدمية ينهشون بعضهم بعضًا. نواب المعارضة استشهدوا بمصطفى في استجواباتهم في مجلس الشعب، ونواب الحكومة شتموه واعتبروه خارجًا على الطبيعة البشرية وعلى التقاليد المصرية، ورئيس مجلس الشعب طلب الانتقال إلى جدول الأعمال. سيناريست كبير قال إنه كتب معالجة سينمائية عن قصة مصطفى لكن شركات الإنتاج لم ترحب لأن الجمهور ممكن «يقفل» من حكاية نبش المقابر. كلام مصطفى في كل الصحف جاء مكررًا لدرجة تشعرك أن بعض الصحفيين لم يذهبوا للقائه أساسًا بل أرسلوا المصور فقط، بعضهم تكلم على لسان مصطفى وعبر عن آرائه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبعضهم الآخر أراد أن يستعرض أسلوبه الأدبي في التنديد بما حدث معطيًا مادة خصبة لخطباء الجمعة لكي يدبجوا خطبًا لاذعة عن وقائع آخر الزمان الذي تلد فيه الأمة ربتها وترى الحفاة العراة يتطاولون في البنيان بينما ينبش المصريون قبور موتاهم.
بعد أسابيع نسي الناس مصطفى وانشغلوا بنبأ الموظف الذي ألقى زوجته وأطفاله في النيل لأنه لم يعد قادرًا على إطعامهم ثم رمى نفسه خلفهم لكنه وقع على أم رأس رائد في شرطة المسطحات المائية كان متوجهًا بلنشه لإنقاذ الأطفال فقتل الرائد من فوره بينما نجا الموظف.

لم يظهر مصطفى بعدها مطبوعًا أو مذاعًا أو متلفزًا، لم يبق منه سوى سطور نقلها عن فمه عالم اجتماع مرموق في دراسة له عن تطور الجريمة في مصر:
«كلكم زعلانين عشان الميت اللي اتدفن. وما حدش فيكو زعل على اللي زيي طول عمرهم مدفونين بالحيا».

(٨)

س: ما صحة أنك بعت الشريحة والمسامير التسعة المنتشلة من قبر قريبك المرحوم بمبلغ تسعة عشر ألف جنيه؟
«عندما وجه وكيل النيابة هذا السؤال لمصطفى رضا الشهير بحفار القبور ضحك مصطفى ضحكة بذيل ظنها وكيل النيابة استهزاء به، وهدده بالحبس خمسة عشر يوما على ذمة التحقيق، مصطفى أقسم له بأنه يضحك من غُلْبه، وأنه لم يكن يعلم أن المسامير والشريحة تساوي هذا المبلغ، وأنه مكسوف من أن يقول لسعادة الباشا الرقم الذي باع به المسامير والشريحة. وكيل النيابة سأله عما إذا كان يستعبط، لكن مصطفى أقسم له بقبر أمه، وكيل النيابة قال له: «بلاش انت بالذات تحلف بالقبور»، وبرغم أن تعليق سيادة وكيل النيابة كان جارحًا إلا أن مصطفى لم يتوقف عنده وواصل قسمه مردفًا بقوله إن من اشترى منه المسامير والشريحة لا يعلم أساسًا أنها تساوي هذه الفلوس كلها وأن كل ما أخذه فيها كان سبعة آلاف جنيه دفع خمسة آلاف منها لدكتور معهد القلب الذي أجرى لزوجته عملية تغيير الصمام ودلع عياله حبتين ببقية المبلغ».
س: لكن الدكتور الذي ذكرته نفى ذلك وقال إن زوجتك تم إجراء عملية لها على نفقة الدولة وأحضر لنا صورة قرار العلاج؟
ج: ما هو يا سعادة الباشا قال لنا إن في حاجة اسمها «ويتينج ليست» ولا مؤاخذة يعني قال لنا إنها قائمة انتظار وفيها بتاع ميتين تلتميت واحد وواحدة، وإنه مش مسئول عن أي مضاعفات تحصل في فترة الانتظار، وإنه ممكن يعملها لها في مستشفى خاصة بالفلوس دي، وده اللي خلاني ألجأ للحل ده.
س: كيف جاءتك الفكرة بأن تقوم بنبش قبر قريبك ونزع الشرائح والمسامير منه؟
«اشتعل التحقيق عندما طلب مصطفى من الباشا أن يغير كلمة نبش قبر قريبك لأنها جامدة قوي، وكيل النيابة سبَّه كثيرًا وقال له مش مجرم زيك اللي هيعلمني أقول إيه وما أقولش إيه، محامي مصطفى اعترض على وصف موكله بالمجرم قبل أن يلقى محاكمة عادلة ثم جاءه موبايل فطلب منه وكيل النيابة أن يغلق موبايله أو يخرج ليتكلم بره فخرج ليتكلم بره».
ج: يا سعادة الباشا مافيش فكرة ولا حاجة، أنا كنت في الوزارة وسمعت حد موظف مش فاكر اسمه بيحكي إنهم راحوا مستشفى ناصر عشان يعالجوا واحدة قريبتهم رجلها اتكسرت أو حاجة زي كده، فقالوا لهم في المستشفى يجيبوا لها مسمارين وشريحة أو حاجة زي كده، وكان بيشكي من إن الشرايح والمسامير بقت غالية قوي، أنا بصراحة ما كنتش أعرف، قلت له غالية ازاي مش حديد، قال لي لا يا عبيط دي بلاتين، فأنا استغربت، وبس، لما حصلت المشكلة بتاعة الأسرة، المدام يعني، وانا سرحان في يوم بافكر أجيب الفلوس، افتكرت إني كنت مع المرحوم في المستشفى لما ركبوا له المسامير والشريحة، أصله كان عمل حادثة لما عربيته دخلت في قطر عشان ما كانش فيه مزلقان أو حاجة زي كده، المهم الشيطان وسوس لي جامد، استغفرت ربنا بس لما ضاقت عليَّ قلت يعني الحي أبقى من الميت، واللي يعوزه البيت يحرم على الجامع، وبصراحة كنت هاروح دار الإفتاء أستفتي وبعدين قلت يعني الشيوخ محبكينها قوي سعادتك، إذا كانوا بيقولوا

لما الواحد ينسى يغسل كعب رجله لازم يعيد الوضوّ كله من أول وجديد، يبقى هيسيبوني ألحق الولية قبل ما تموت أو حاجة زي كده.

(٩)

منذ أن ذاع نبأ ما فعله العيان مصطفى بقريبه الميت محمد بين الناس دخلت الشرائح والمسامير في قائمة ما يتم بحثه عند تقسيم الميراث، ولم يعد يدفن أحد بشرائحه أو بمساميره ليس بسبب الفقر الذي أهلك البلاد والعباد وإنما صونا لحرمة الموتى واحترازًا من تكرر ما فعله العيان بالميت.

راحة القلب تبدأ من القدمين

«يعشق وجه قاتله القتيل»

لم أكن أعلم أنني سألقى على يديها أو قل إن شئت الدقة على أهداب عينيها مصير البطل اليوناني الأسطوري «أخيل».

كان أخيل لمن لا يعلم محاربًا موهوبًا، جَنْدَل العشرات من الفرسان وحسم العديد من الحروب بسيفه المفرد، لكنهم عندما عثروا على جثته أثناء فتح طروادة وجدوه ميتًا وفي كعبه سهم فخُيِّل لرفاق أخيل أن نقطة ضعف ذلك المحارب العملاق كانت كعبه، وتحوّل هذا التخيل عبر العصور إلى اعتقاد راسخ وسؤال في برامج المسابقات. بينما الحقيقة المرة أن نقطة ضعف أخيل لم تكن كعبه أبدًا، فكيف يمكن لمن كان ينتزع بيده الرماح والسهام من جسده ويواصل القتال أن ينهزم على يد كعبه؟!

المسألة ليست كذلك على الإطلاق.. كل ما في الأمر أن نقطة ضعف أخيل كانت أنه وقع كالدلو في هوى «بريسيس» أجمل أميرات طروادة التي كانت أسيرة عنده لفترة وجيزة قبل أن يصبح هو أسيرًا عندها بعد أن استردها أبوها وأعادها إلى مدينتها سلميّا.

كان المحاربون المتدفقون على حصون طروادة مشغولين بالسيطرة على المدينة، بينما كان أخيل يجري كالمجنون في أروقة قصور طروادة باحثًا عن محبوبته لتأمينها من بطش غوغاء الجيش المهاجم، حتى عثر عليها أخيرًا عالقة وسط النار والدمار، ولأن مجرد رؤيته لها كانت تحوله من فارس إلى فرس فقد تخلى وقتها عن كل غرائزه القتالية التي طالما أنجته، مقررًا وقد أعمى العشق بصيرته أن يحتضنها معبرًا عن شوقه ولهفته وحبه، وبينما هو ساه في غمرة حضنها إذ بأمير طروادة الشاب باريس يعاجله بسهامه الغادرة، ومع أن أخيل كان في وضع مثالي للقتل إلا أن سُمعته المهيبة وتاريخه المشرف في ملاعب الدم جعلا يد مهاجمه ترتبك رغمًا عنه ليستقر السهم الأول في كعب أخيل الذي لم يكن يحتاج إلى سهم لكي يفقد توازنه، الذي كان قد فقده للدقة منذ أن سمح لهوى بريسيس أن ينتشر في مسام روحه كقضاء الله المستعجل.

هوى أخيل بفعل هواه لا بفعل السهم الراشق في كعبه، نظر إلى عيني قاتلته قبل أن يلتفت نحو عيني قاتله، رأى في عينيها جيشًا عرمرمًا من الأحلام يسقط صريعًا مجندلا، رأى سفنًا كاملة من الأماني تحترق، رأى قلاعًا من الصخر تتهاوى متداعية تحت رقة الموج، رأى فرسانًا سبقوه وفرسانًا سيلحقون به يسلمون مفاتيح حصونهم لعيون فتاكة منكسرة متكسرة، رأى كل هذا ثم نظر إلى عيني قاتله يسأله أن يوفر سهامه القادمة لجسد لم يذق طعم الهوى، لم يفهم قاتله ما بين السطور لأنه لم يكن يجيد القراءة فوالى إطلاق سهامه، توالت السهام على أخيل كأنها لطمات على خده توبخه وتذكره بأنه الذي جابه لنفسه عندما تخيل أن انكسار عيني بريسيس هو تكريس لرجولته، وهو الآن يدرك أن ذلك الانكسار كان إيذانًا بنهايته.

سقط أخيل بين أحضان نقطة ضعفه وهو ينزع السهام عن صدره وجسده الذي لم ينزف دمًا بعد أن صفّى العشق دمه، سقط معه عنترة والعباس بن الأحنف وأنطونيو وأبونا آدم وقيس بن ذريح وقاهر ابن خالتي وقيس بن الملوح ووالده الملوح وعمر بن أبي ربيعة وعماد الفايد وروميو ووالده شكسبير ومحمود حسن إسماعيل وديك الجن الحمصي.

مالي أنا ولأخيل!

أنا لم يدخل في كعبي سهم بعد.. مرة دخل فيه مسمار عندما كنت أجري هاربًا من أن تطولني عصا أبي الذي تعود على ضربي بها عندما لا أصلي الصلوات المفروضة في جماعة، سقطت على الأرض أتلوى من الألم وهو يواصل ضربي متوعدًا إياي بفظائع عذاب الله دون أن يعلم أنني لقيت وعدي بالفعل، ليس وقتها بل بعد ذلك بسنوات طويلة عندما وقعت كما وقع أخيل.
الذي أعلمه أنني لم يُرشق في كعبي سهم، لكنني أعلم أيضًا علم اليقين أن قلبي رُشق بسهم من قوس عينيها، صحيح أنني لا أذكر هل كان سهمًا مريشًا أم سهمًا سادة، لكني أذكر أن ذلك حدث بالفعل ذات يوم من العشر الأواخر في شهر يونيو عام ألفين أو هكذا أظن، كنت كأخيل أبحث عن أمان لنفسي الضائعة وسط أحلام لن تتحقق وعلم لا ينفع ودعوات لا يستجاب لها، أجلس على مكتبي أكتب مقالا ناريًا أعلم أنه سينطفئ فور عرضه على رئيس التحرير الذي سيمنع نشره، حولي زملاء مهنتي أو قل شركائي في الجريمة التي نرتكبها بحق الحقيقة كل ثلاثاء، خلفي شعاري الفكري الجديد «دعه يعمل دعه يمر»، في قلبي تصفر الريح وتركب خيبات الأمل سربًا من الجمال المتجهة إلى المدبح، في جيبي سبعون جنيهًا وفاتورة أكل من دجاج تكا بمبلغ موازٍ، باختصار تستطيع أن تقول إن أخيل كان وقت مداهمة السهم لكعبه في حال أفضل مني بكثير.
لا أذكر هل كان كعبي متواريًا مع بقية قدمي خلف مكتبي الألوميتال أم أنه كان خارج المكتب بصحبة قدمي كعادتي عندما أكتب، لكنني أذكر أني كنت في مكتبي في الدور الثاني في مبنى أبيض اللون من طابقين في الزمالك بالتحديد في شارع حسن صبري الذي أمر في شارعه كل يوم دون أن أتشرف بمعرفته شخصيًا، كان الباب مغلقًا على همومنا ونكاتنا البذيئة وإفحاشنا بحق رئيس تحريرنا المناضل سابقًا الاستراتيجي حاليا، شعارنا في الحياة كتبناه بالكمبيوتر على لافتة ورقية علقناها في صدر المكتب «إن جاء زيد أو حضر عمرو.. طب واحنا مالنا إنشالله ما حضروا»، لكن المشكلة أن الذي لم يحضر لم يكن زيدًا ولم يكن عمرًا. كانت هي التي حضرت ولم يكن لها من دون الله كاشفة. فجأة فتحت الباب فاتجهت الأبصار نحوها تلقائيًا، كانت تعرف هدفها جيدًا كأنها تدربت عليه مرارًا وتكرارًا، برشاقة فراشة امتشقت السهم من شنطة يدها وأطلقت سهمها دونما سابق إنذار، ودون أن يشعر أحد بما فعلته سواي، لأني أنا الوحيد الذي تألم بالطبع.
بهدوء القاتل المحترف ودون أدنى شعور بالذنب سألت عني كأنها لا تعرفني، كأنها لم تتعاقد مسبقًا على قتلي، كأنها لم تصوب سهمها لي وكأنها لم تصبني، سمعت الإجابة على سؤالها من أحد شهود العيان وهي تنظر إليَّ بعينين مدربتين على التأكد من إصابة الهدف في مقتل، عندما تأكدت من إصابة الهدف لمقتله اتجهت نحوي وسلمت وجلست تراقبني وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة في حضرتها،وهي تسأل الله المغفرة لذنبها وتقرأ الفاتحة على روحي التي لا يعلم الكثيرون أنها طاهرة.
ما الذي حدث لي بعد ذلك؟
لا يمكن أن أفترض في من يسأل هذا السؤال شيئًا سوى الغباء؛ فأنا نفسي الذي قلت منذ قليل إنني لفظت أنفاسي الأخيرة.
أعرف أن الأمر يبدو محيرًا فأنا كثيرًا ما أقابل أشخاصًا يعتقدون أنني حي، بل إن بعضهم يبادر بثقة وعفوية لاحتضاني والتربيت على كتفي وسؤالي عن حالي وعن المدام والأولاد، أهز رأسي مجاملا دون أن أعرف عن ماذا يسألون ولا بماذا أجيبهم. طيلة الوقت أسمع الناس يتكلمون عني وعنها كثيرًا، أسمعهم يقولون إنني عشت وإنني تقدمت لخطبتها وإنني رُفضت ولُفظت وإنها قاتلت

من أجلي وإنني قُتلت من أجلها وإنني تزوجت غيرها وإنني رقصت في فرحي بل وسكنت في المعادي وأنجبت ولدًا صبوحًا كالقمر، لعله الولد الذي كان يسألني عنه البعض كلما قابلني، والبعض من هؤلاء البعض يستغربون عندما أسألهم هل يعرفون ما إذا كنت سعيدًا في حياتي، بعضهم يشتمني ويتهمني بالاستعباط عليه بينما يأخذني البعض على قد عقلي ويجيبني، وبعض هؤلاء البعض يقول إنني كنت سعيدًا في حياتي وإنه شاهدني بالفعل وأنا سعيد ويقسم على ذلك وإنه كان يطرب من سعادتي وينهر من يغيرون من سعادتي مقسمًا أنه ليس من أولئك الغيورين، ويقول البعض إنني لم أكن كذلك وإنه كان دون غيره يشعر بي وبتعاستي لكنه لم يكن يصارحني لكي لا يقتحم خلوتي، يقول البعض إنني كسبت فلوسًا كثيرة وأنفقتها كلها، يقول البعض إنني كتبت كثيرًا وإنني قرأت كثيرًا وغنيت كثيرًا وكسبت كثيرًا وأنفقت أكثر وبكيت كثيرًا وضحكت قليلا وخاصمت كثيرات وصالحت كثيرين.

يتحدثون عن أشياء كثيرة لم أشعر بها مطلقًا، فكل ما أشعر به ألم فظيع في كعبي.

ساعة حساب

ـ ما اسمك؟
ـ والله ما انا فاكر.. المفروض إنكو عارفينه.
ـ ما دينك؟
ـ مسلم إن شاء الله.
ـ يعني إيه.. إنت مسلم ولا إن شاء الله؟
ـ مسلم.. بس أنا دايمًا باقدّم حاجتين: الساعة والمشيئة.
ـ طب المشيئة وفهمناها.. بتقدّم الساعة ليه؟
ـ ما باحبش أسابق الزمن.
ـ شقي أنت أم سعيد؟
ـ أنا مصري.
ـ يعني إيه؟
ـ يعني أنا سعيد بشقائي.
ـ هل تذكر كيف توفيت؟
ـ كنت رايح معهد الأورام أعمل جلسة كيماوي خدتها على نفقة الدولة بعد ما بعت صيغة مراتي.. الظاهر ربنا حب يلعني عشان أنا راشي.. قام الميكروباص اللي كنت راكبه عمل حادثة على المحور.. بس متهيأ لي نجيت منها لأني لما الإسعاف رماني في المستشفى لقوني سليم وطلبوا ستميت جنيه عشان يطلعوني من غير ما يسرقوا كليتي.. لما لقوني بعتها من سنة حلفوا ما يخرجوني إلا لما أتبرع بالدم.. قلت لهم مش هينفع عشان من يومين عضني كلب أمير سعودي.. ما صدقونيش إلا لما عضيت دكتورة التخدير في كعبها.. افتكرتها ممرضة مالهاش دية.. طلعت مسنودة بس طالعة سمرا لأبوها اللي كان فقير بس ربنا كرمه وبقى حرامي كبير.. وهي داخلة تتعالج على نفقة الدولة حلفت إني لو ما اتأدبتش هتقفل المستشفى.. اتحايلت الدكاترة عليَّ إني ما أقاومش الاعتقال عشان المستشفى باب رزق ومفتوح للكل.. ما رضيتش أقطع عيش حد.. كنت فاكر الموضوع هيخلص بسرعة.. بس في القسم اتأخرنا لأن الباشا الضابط ما كانش فاضي.. كان بيعذب سواق ميكروباص قعّد أمين الشرطة على الكرسي القلاب.. السواق حلف إن كل غلطته إنه قال للأمين يقعد رابع ورا.. لكن لما طلّع له الكارنيه قوِّم له واد كان رايح سفارة رومانيا عشان يطلب الهجرة وقعّده جنب ست كبيرة كانت رايحة تزور ابنها اللي معتقل من خمستاشر سنة.. ولما الناس لمِّت الأجرة الأمين صادرها وقال لهم إنه حاسس إن الفلوس مزورة ولازم يكشف عليها.. قال له السواق إن ده ما يرضيش ربنا.. وعنها بقى.. الكلام ده عرفته في الطب الشرعي لما رحت أنا والسواق عشان نثبت إن الضابط كهربنا من خلاف.. وبخلاف كده تفّ علينا عشان لما حاول يحط لنا في المسائل جسم صلب.. قرف من الريحة وقال إننا ملعونين في كل كتاب.. ولما قلنا له إن احنا بتوع ربنا إدانا نمرة برنامج الله أعلم عشان نستفتي في حكم الشرع في اللي ما بيلتزمش بآداب الطهارة.. بس إحنا غلطنا وسألنا عن حكم الشرع في اللي يسقي الناس مية مش طاهرة.. الشيخ قال لنا إن الجواز العرفي حرام ونصحنا بالتوبة وعمل عمرة فورًا.. قلت له إني متعقد منها عشان أمي وأبويا لما راحوا يعملوا عمرة اتحرقوا وعالجوهم على نفقة أمير ما بيحبش يربي كلاب.. وهم راجعين في العبارة غرقوا.. بس السواق تأثر جدا بكلام الشيخ.. وخرج في سبيل الله

لكنه اتمسك أمن دولة عشان عمل لحماته عرض عسكري لما رفضت ترجّع له مراته اللي سيّحت له في الحارة وقالت إنه من ساعة ما رجع من القسم ما عادش زي الأول.. أنا بقى رجعت من الطب الشرعي مقهور عشان جلسة الكيماوي فاتتني.. لقيت مراتي عاملة العشاء وقاعدة بترجّع جنبه عشان السجق طلع فسدان.. حاولت أسعفها شاورت لي على ابني صلاح اللي لقيته مفرفر على الكنبة.. أتاريه من ساعة ما راح الوحدة يتطعّم وهو مش على بعضه.. كان التلفزيون بيذيع خطبة للريس من غيظي حدفته بطبق وِلِع.. التلفزيون طبعًا.. مسكت النار في الشقة.. أنقذت صلاح وسبت مراتي بناء على إلحاحها.. بس طلعت مصيبتي أهون من غيري.. أصل الحتة كلها اتحرقت عشان لما اتصلنا بالمطافي ردت علينا فتاة نهار وقالت لنا نشترك في المسابقة ولما حلينا غلط قفلت السكة.. اتكلمنا تاني وحلّينا صح قام الخط قطع.

ـ باس.. بس كفاية.. كل ده وما عرفناش إنت مت ازاي؟

ـ إيه.. آه.. افتكرت.. مت موتة ربنا.

ـ ما كنت تقول كده من الصبح يا أخي.. أوف.. يا جماعة بعد كده أي حد مصري ما تسألهوش مت ازاي.. اسألوه كنت عايش ازاي؟

في نفق العروبة

لم يكن أحد على الإطلاق يتوقع أن تشهد البلاد مصيرًا كهذا.

لسنوات طويلة كان هاجس غيابه المفاجئ يؤرق معارضيه قبل مؤيديه ويرعب خصومه أكثر من المنتفعين به.

كلما كانت «سيرة» احتمال غيابه المفاجئ تأتي يهرب من مسكها الجميع، يصرخ البعض بحدة لإخفاء رائحة النفاق: «ربنا ما يحرمنا من طلته أبدًا»، ويهرب البعض من الموضوع الشائك مكتفيًا بإبداء قلقه على البلاد ومتمتمًا: «حتى الرسول مات وأمر الله لا بد يكون.. بس ربنا يستر»، البعض الثالث كان يقول بحماس في وجه من يخاف على مستقبل البلاد: «مصر طول عمرها ولادة»، فإذا طلبت منه أن يرشح واحدًا من مواليدها للعب دور البديل قال لك وهو يكاد يرزعك قلمًا من فرط الغيظ: «يعني إذا كان قد حكمها أكثر من ربع قرن من لم يكن يحلم بحكمها البتة تأكد أنها لن تمانع في تسليم مقاليدها لشخص آخر لا يحلم بحكمها قط.. صحيح أن مصر جاءها الضغط والسكر بس لا تنسَ أن قلبها لسه كبير».

لكنَّ أحدًا من كل هؤلاء لم يكن يتوقع أن يأتي غيابه المفاجئ على ذلك النحو الفريد الذي هز الكون كله.

منذ اللحظة الأولى التي أذاعت فيها وكالات الأنباء ومحطات التلفزيون ذلك الخبر العاجل وحتى الآن لم يفهم أحد ما حدث. «اختفاء موكب الرئيس في نفق العروبة». كيف ولماذا وأين اختفى وهل سيعود؟ كل هذا لا يعرفه أحد وربما لن يعرفه أحد في المستقبل القريب.

كل ما يعرفه الناس أن موكب سيادته دخل نفق العروبة في طريقه إلى مجلس الشعب ليلقي خطابه التاريخي الذي سيقرر فيه ما إذا كان سيقبل تولي مسئولية البلاد ست سنوات أخرى بناء على طلب المستمعين، بعد لغط استمر سنوات طويلة حول ما إذا كان سيورث مقعده لابنه أو سيسنده لأحد معاونيه أو سيترك ذكرى طيبة بإجراء انتخابات رئاسية حرة تحت إشراف القضاء وانصراف الأمن، يقرر فيها الشعب مصيره لأول مرة بعد مرور ستين عامًا على إطلاق أغنية «عرف الشعب طريقه».

للحظات ظن الضباط المسئولون عن تأمين الموكب والعساكر المديرون ظهرهم باتجاه المخبرين اللاعبين أدوار المواطنين المدلهين بحبه أنهم قد أصيبوا بعمى مؤقت جعل الموكب يفوتهم بعد خروجه من النفق، لكنَّ الصيحات التي انبعثت من أجهزة اللاسلكي تسألهم عن سر تأخر وصول الموكب إليهم جعلتهم يفتحون أعينهم على اتساعها بحثًا عن سر تأخر خروج الموكب من النفق، لكن أعينهم ما شافت إلا النفق خاويًا موحشًا كئيبًا كأنه لم يفتتح بعد.

لأيام تلت شافت أعين عاثري الحظ هؤلاء نجوم الضهر وهم يتعرضون لأبشع أنواع التعذيب التي لم تقع على أعتى المعارضين في تاريخ البلاد، كان السؤال مُربكًا للسائل والمسئول: «الموكب راح فين ياله؟! يعني إيه اختفى.. إنت هتستعبط». وبعد أن اعترف جميع هؤلاء في اليوم الخامس من التعذيب بأنهم قاموا بإخفاء الموكب في مكان أمين مستعدين للإرشاد عن مكانه وإعادة تمثيل الجريمة، اتضح عدم جدوى الاستمرار في تحميلهم المسئولية وكان لا بد أن تواجه البلاد مصيرها المظلم الذي لم يخطر لها على بال.

كل الاحتمالات قُتلت بحثًا، حتى تلك التي كانت تستوجب قتل قائلها لفرط تفاهتها؛ مثل احتمال تعرض الموكب لهبوط أرضي بفعل تكرر إصلاحات المحافظة للنفق، مرورًا بتكليف مرصد

حلوان بدراسة احتمال انجراف الموكب داخل ثقب كوني أسود بحكم تصادف دخوله النفق لحظة تعامد قرص الشمس على قطاع الأخبار، وصولا إلى تشكيل فريق من أطباء العيون لدراسة احتمال كون الموكب موجود بالفعل بس إحنا اللي مش قادرين نشوفه. حتى أستاذ التاريخ الشهير الذي اعتقل لأنه قال في قناة فضائية إن ما حدث يذكر باختفاء الحاكم بأمر الله في صحراء المقطم قبل مئات السنين تم إطلاقه لكي يرأس فريقًا بحثيًا يحقق في ملابسات اختفاء الحاكم بأمر الله لكي يستفيد فريق البحث الجنائي منها، بل ووصل الأمر إلى إصدار قرار من النائب العام بفتح قبر ست الملك شقيقة الحاكم بأمر الله لدراسة تورطها في قتل أخيها فقط لكي يتم حسم ما إذا كان يمكن لأي حاكم بأمر الله أو بأمر غيره أن يختفي أساسًا.
زادت البلبلة عندما تفجرت أرض البلاد في سائر مدنها منتجة سوائل كثيفة لزجة، قال بعض رؤساء تحرير الصحف الحكومية إنها من فرط حزن أرض مصر على اختفائه المفاجئ، وقال بعض أئمة المساجد إنها دليل على أن غضب الله قد حل على العباد وإنه قد حان ظهور إمام الزمان، ليتضح بعد تشكيل لجنة هندسية رفيعة المستوى أن الأمر وراءه تصدع مفاجئ في شبكتي مواسير المياه والصرف الصحي. وخلال ذلك كله لاص أساتذة القانون الدستوري أيامًا وليالي في محاولة البحث عن مخرج دستوري لسد الفراغ الدستوري الذي حدث، خاصة أن حكاية الاختفاء المفاجئ هذه لم تكن لترد أبدًا لدى «أجمح» ترزية الدساتير خيالا.
الذين راهنوا على أن الشعب سينتج بعد ما حدث نُكتًا تميت من الضحك خاب أملهم جميعًا؛ لأن الشعب منذ اليوم الأول لتلك المفاجأة الكونية كاد يموت من الخوف، علماء الاجتماع السياسي فسروا ذلك بأن النكت كانت تنطلق بعد رحيل حكام قصيري العشرة مع الشعب المؤمن - والمؤمن كما نعلم إلف يؤلف - على عكس سيادته الذي لم يعد أولاد بلدنا يتخيلون أيامهم من غيره، ولدوا ونشئوا وشبوا وشابوا وترعرعوا وذبلوا عليه، عندما جاء إليهم لم يكونوا يعرفونه ثم أصبحوا لا يعرفون غيره، تسعة وتسعون وتسعة من عشرة في المائة من أبناء الشعب لم يشهدوا حاكمًا قبله ولا غيره، كأن الدنيا بدأت به وكأنها لن تنتهي أبدًا ما دام فيها، طبقات الأرض تبدلت فالتحم بعضها وانفصل بعضها، وبقي هو، أغرق المد البحري جُزرًا وهدمت الزلازل دولا وغطت البراكين مُدنًا وشردت العواصف شعوبًا، وهو كما هو، يبدو كأن التاريخ قد تجمد عنده فاصطدم الماضي بالحاضر قبل أن يصطدما سويّا بالمستقبل ويشكلوا معًا شيئًا غير مسبوق في تاريخ الكون، وحدة زمنية مصمتة، الحاضر فيها ماض سبق للناس أن عاشوه، والمستقبل فيها يتمنى الناس أن يكون بنفس سوء الحاضر لا أكثر سوءًا، لم يعد الزمن في أيامه يقاس بالأيام أو الشهور أو حتى بالسنين، أصبح يقاس بالحتت، حتت زمنية قد يبدو لك أنها تختلف عن بعضها لكنك لو أمعنت النظر فيها مليّا لاكتشفت أنك قد عشتها قبل ذلك، إن كنت مؤيدًا تشعر أنك قد قلت كل ما لديك في حتة ما، وإن كنت معارضًا تشعر أنك قد استنفدت كل ما لديك في جميع الحتت، جاب الكل آخره دون أن يبدو أن هناك آخِرًا يمكن أن يبلغه أحد.
عندما اقتربت البلاد من دخول عام على اختفاء موكبه المفاجئ في نفق العروبة كان قد تأكد للجميع مجددًا أن ربنا ما بيعملش حاجة وحشة. ملف التوريث الذي أنهك البلاد والعباد سنين عددًا أقفل غصبًا عن الجميع مؤيدين ومعارضين، فحتى أكثر الجائعين للتوريث لم يكن ليجرؤ على الإفصاح عن رغبته دون أن يعرف مصير الموكب المختفي. بعد شهر على الأكثر عاد الناس لممارسة حياتهم الطبيعية بأفضل مما كانوا عليه ولم يعد تفسير لغز الاختفاء يحتل أغلب وقتهم، بل أصبح اللغز الجديد الذي يشغل بال المراقبين هو أن كل ما كان الجميع يحذرون من حدوثه عند

غياب الرئيس لم يحدث، فلم تشهد البلاد انفلاتًا أمنيّا أو فراغ سلطة أو ثورة جياع أو أزمة دستورية أو اختلالا اقتصاديّا أو ماء نقيّا، وهو ما فسره علماء الدين أن اختفاءه المفاجئ أعاد الوازع الديني ليتحكم في أفعال الناس خوفًا من أن يتعرضوا للاختفاء، وعندما أرسلت الأمم المتحدة وفدًا من كبار خبراء السياسة والاقتصاد والاجتماع السياسي الدوليين لدراسة هذا الوضع الفريد دوليا لمعرفة كيفية التعاطي معه لم يصل الوفد إلى نتائج قاطعة،حتى أن رئيس الوفد قبل مغادرته البلاد لم يجد تفسيرًا لعدم احتياج الناس إلى من يشغل المنصب الشاغر سوى قوله: «بعد دراسة مستفيضة اتضح لنا أن الجمهورية في السنوات الأخيرة من حكمه لم تعد تحيا، بل أصبحت تعيش وخلاص، ولذلك فهي لا تحتاج إلى رئيس بقدر ما تحتاج إلى معجزة».

على مقهى شعبي يقولون إن عمره سبعة آلاف سنة قال لاعب طاولة بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «حد يصدق إن البلد تمشي كده بالبركة!»، فقال له صاحبه وهو يحاوره: «ومنذ متى مشت بلدنا بغيرها؟!».

حتى الجراجات يمكن أن تغرق!

لا تضحك على هذه القصة لأنها يمكن أن تحدث لك.

عندما أيقظوا صديقنا على ملا وجهه ليقولوا له في الهزيع الأخير من الليل: «إلحق يا باشا.. عربيتك غرقت»، كان لا بد أن يصاب بتلك الحالة المذهلة من التناحة وعدم الفهم؛ فهو لم يركن عربيته على كورنيش البحر لأنه ليس مقيمًا في الإسكندرية ولم يركنها على كورنيش النيل لأنه ببساطة يقيم في أعمق أعماق باب الشعرية.

تكرار الجملة «إلحق يا باشا.. عربيتك غرقت» جعله يخرج من تناحته الطارئة ويستدير هارعًا إلى غرفته ليرتدي شيئًا على الفانلة «الكَت» ويلحق عربيته التي تغرق، لكنه بعد أن تذكر أنه ركن عربيته الكورية الجديدة في جراج قريب من بيته ليلة أمس، قرر أن يتوقف ليسأل السؤال الذي وقف في زوره: «تغرق ازاي يعني؟».

عندما وقف صديقنا مذهولا أمام الجراج الذي غمرته المياه التي تدفقت بعد انفجار ماسورة المياه الرئيسية في المنطقة على حين غرة، كان عامل الجراج يحكي له وهو يبكي كيف صحا من النوم ليجد نفسه عائمًا في المياه: «كنت باحلم اني باتصيّر ولا مؤاخذة أتاريني باغرق»، بينما كان ثلاثة من الجيران يتناقشون حول الجهة التي يجب الاستنجاد بها في حالة كهذه: «المطافي ولا وزارة الري ولا المحافظة»، لكن جارًا رابعًا حسم النقاش عندما قال لهم إنه «يعرف نقيبًا في أمن الدولة»، الجميع صمتوا عندما رفع صديقنا رأسه إلى السماء وأخذ يصرخ بهستيريا: «تغرق ازاي.. فهمها لي؟»، ولما قال له أحد المارة: «وحد الله يا عم.. إذا كانت تايتانيك غرقت..عربيتك مش هتغرق»، كاد صديقنا يفتك به ليس لأن المقارنة كانت متعسفة فهو لم يركن عربيته في الأطلنطي، بل لأن صوت الرجل ذكره بأنه نسي وثيقة التأمين في تابلوه العربية.

الذين حاشوه من أن يرمي نفسه في بحر الظلمات المندفع من الجراج ليغرق الشوارع المحيطة بالمكان لم يعطوه فرصة ليشرح لهم الأمر فقد ظنوا أنه قرر أن ينتحر كُفرًا ولذلك وضعوا أيديهم على فمه لكي لا يتفوه بعبارات تخرجه من الملة. عندما قال له أحدهم: «وحد الله يا أخي واوعى تكفر.. إنت مش مأمن عليها»، فوجئ بصديقنا ينقض عليه ليعضه في محاشمه، سب للجميع مائة ملة وترك المكان وهو يلعن الناس اللي هتموت نفسها على الفلوس.

وحدها قوات مكافحة الشغب هي التي تمكنت من السيطرة على صديقنا والتحفظ عليه في مكان أمين لحين انتهاء السيد الوزير المحافظ من زيارة موقع الجراج الغارق وإبلاغ الأهالي تضامن السيد الرئيس وتبرعه بخيام وبطاطين للناجين.

بعد أيام من إطلاق سراحه وعندما قال صديقنا لموظفي شركة التأمين إن عربيته غرقت طلبوا له زجاجة فيروز أناناس ونصحوه بأن يقول دعاء فك الكرب عشر مرات، بعد ثوان كان الجميع قد تحلقوا حوله ليمنعوه من قطع شرايينه ببواقي زجاجة الفيروز التي كسرها على رأس المدير الذي قال له بصوت أبوي إن وثيقة التأمين لا تغطي سوى حوادث التصادم والحريق والسرقة فقط، وإنه يمكن أن يخدمه لو أتى بشهادة تثبت أن سيارته كانت عَبَّارة.

بعد أيام من تدخل الأجهزة المعنية وقيامها بشفط المياه من الجراج وانتشال السيارات الغارقة بناء على توجيهات السيد الرئيس، أخذ الجميع يضربون كفًّا بكف حزنًا على زينة شباب الحتة وهم يشاهدونه يرقد ذاهلا عما حوله إلى جوار عربيته التي لم يفرح بها صارخًا فيها بصوت عالٍ

يقطّع نياط القلب: «وحياة اللي بنى البنية الأساسية أول ما تنشفي هاولع فيكي وأقبض فلوس التأمين ضد الحريق».

الحاجات دي

خيالاته عن الزواج كانت تفوق الوصف. ولا مرة في حياته جرب شقاوة الشباب، فقد قرر منذ البداية أن يعفَّ نفسه حتى يتزوج ويعوضه الله بالحلال وفي الحلال. وفيما كان جميع أقرانه مشغولين بجلد عميرة لإطفاء نيران شهواتهم ظل محتفظًا بموقفه وبعميرة ضد الجلد موقنًا أن الأيام ستحمل له ليالي وردية ونهارات خروبي تعوضه هو وعميرة عن كل ما فاتهما.

عروسته الجميلة لم تكن تتخير عنه أبدًا، بنت ناس طيبين وأفاضل ربوها على أن تصون عفتها لزوجها وألا تفكر في «الحاجات دي» إلا بعد الزواج، ولذلك كانت كلما أغراها الشيطان بأن تفكر في «الحاجات دي» طردته بكل ما تحفظه من استعاذات، ممنية نفسها بإمعان التفكير في «الحاجات دي» بعد الزواج.

بعد الزواج وافق شنٌّ طبقة، وصادف المشتاق شوقه، وشاف الاثنان في الأسبوع الأول من زواجهما هناءَ مَنْ صَبَرَ ونال، لأيام وليالٍ مارس الاثنان التفكير المنهجي في «الحاجات دي» لدرجة جعلت نزول الزوج إلى الشغل بعد انتهاء إجازته أشق عليهما من خرط القتاد، على باب الشقة وهما يحاولان التوقف عن التفكير في «الحاجات دي» قالت له: «بس بقى يا بيبي إنت لازم تلحق شغلك.. مش هنقضي العمر كله تفكير في «الحاجات دي».. عايزين نفكر في حاجات غيرها عشان نأمن مستقبلنا»، رد عليها بقبلة كادت توقعها في شرك التفكير في «الحاجات دي» مجددًا لكنها بوصفها بنت ناس طيبين وأفاضل قالت له بدلال: «يووه بقى يا بيبي.. قدامنا العمر كله.. إنت مستعجل على إيه؟!».

قالتها وهي لا تعلم الذي كان يخبئه لهما العمر كله، ولو كانت تعلم لما دفعته للمغادرة ولقضيا العمر كله يفكران في «الحاجات دي» قبل أن يتحول التفكير فيها إلى حلم أشق من الحلم بتداول سلمي للسلطة.

بعد أقل من ثلاثين يومًا منذ ذلك الخروج لم يعد صاحبنا قادرًا البتة على التفكير في «الحاجات دي»، أصبح مألوفًا لدى عروسته منظره وهو يجلس في البلكونة بصحبة كوباية الشاي ممسكًا بورقة وقلم رصاص محاولا الوصول إلى حل مشرف يمكنهما من إكمال الشهر بمرتبه البالغ ستمائة جنيه والذي يحسده أغلب أقرانه عليه، كلما حاولت مناغشته بسؤال من عينة: «الشاي مضبوط يا بيبي؟!» كانت الإجابة دائمًا همهمة تتبين منها جملة واحدة: «٢٠ جنيهًا في اليوم طب ازاي؟!»، حتى عندما كانت تتزين له بما أفاءت أمها عليها من لانجيريهات الدمار الشامل لم تكن تلقى منه سوى نظرات تائهة في الهيولي يعقبها سؤال بايخ مثل: « أهلك ردوا عليكي في موضوع الشغل بتاعك؟»، عطورها التي كانت تفتح شهيته للتفكير أصبحت تقابل بسؤال: « إنتي شامَّة ريحة الغاز دي؟ ربنا يستر ويكون المنظم سليم»، حتى عندما قررت إراقة ماء وجهها بدفعه لمشاهدة الكليبات العارية في قناة ميلودي لعلها تقدح زناد فكره في «الحاجات دي» كان يبصق على التلفزيون ويديره إلى قناة الناس الدينية قائلا بعينين زائغتين: «خلينا نفكر في آخرتنا شوية».

بعد ستة أشهر دخل على أهله باكيًا ليقول لهم إنه طلق زوجته التي اتضح أنها قليلة أصل، وعندما حاول أولاد الحلال من الطرفين أن يصلحوا ذات البين اكتشفوا أن زوجته كانت منهارة أكثر منه، فهي لم تصدق ولو للحظة أنه يمكن أن يطلقها، بعد أن حاوروها يمينًا وشمالا لم تنبس الأصيلة ببنت شفة تسيء إليه. وبعد لأي اتضح أن المجنون طلقها عندما عاد متعبًا كعادته من عمله الإضافي الثالث ليجدها تقرأ الجرنان بصوت عال دفعه ليظن أنها كانت تلقح عليه بالكلام وهو ما

لا يليق ببنت أصول مثلها، وبعد إلحاح أولاد الحلال عليها في السؤال عما كانت تقرؤه اتضح أنها كانت تقرأ مقالا كتبه كاتب صحفي يستنهض زميلا له على أن يتعافى من مرضه، لم تكن تظن أبدًا أن ذلك يمكن أن يغضبه إلى هذه الدرجة، ربما لأنها بنت أصول متربية ولم تأخذ بالها أن المقال للأسف كان عنوانه «نريدك واقفًا».

البلد بتاعة سيادته

يا الله. من كان يصدق أن تتدهور الأمور إلى هذا الحد وفي هذا الوقت القصير.

لم يعد ممكنًا أن يتم إخفاء الأمر عن العالم الآن. حتى المونتاج لن يكون مفيدًا الآن بعد أن تكفل طيلة السنوات الأخيرة بإخفاء ما طرأ على الحاكم الثمانيني من ضعف مرعب في الذاكرة بحيث لم يعد يتذكر أسماء أغلب رجاله الذين صنعهم على عينه وثبتهم في كراسيهم بعافيته.

كل ذلك بدأ فجأة.

كان سيادته قد وصل للتو إلى مطار عاصمة البلاد لاستقبال حاكم دولة مهمة، لاحظ مساعدوه أنه سألهم أكثر من مائة مرة خلال الأيام التي سبقت الزيارة عن اسم الحاكم واسم دولته والهدف من زيارته للبلاد، عزا مساعدو سيادته تكرار السؤال لإجهاده بسبب الفيروس الذي أصاب أذنه الوسطى قبل أشهر، لكن الجميع صعق عندما وقف سيادته في قلب المطار لينظر إلى وزير العدل متفحصًا ويسأله: «إنت مين؟». في البداية ضحك الجميع وعلى رأسهم وزير العدل نفسه، فقد ظنوا الأمر واحدة من هزارات سيادته الثقيلة التي أخذت أبدانهم على سمها، لكن غضب سيادته من ضحكهم أفاقهم بسرعة ليأخذوا الأمر بجدية ويطلبوا من وزير العدل أن يُعرِّف نفسه بصوت عال، فعل الرجل ذلك محاولا التغلب على صدمته الرهيبة؛ «كيف ينساني وأنا الذي تكفلت بتزوير الانتخابات الأخيرة له لأكفل بقاءه على الكرسي ثماني سنين عددا؟! كيف ينساني وأنا الذي ما تركت قانونًا إلا وفصلته على هواه وهوى أسرته؟! كيف ينساني وأنا الذي صنعت له دستورًا لا مثيل له بين العالمين؟!»، هكذا كان يترافع وزير العدل مدافعًا عن نفسه طيلة الأيام التالية قبل أن يسقط مصابًا بأزمة قلبية ويسعف إلى المستشفى بين الحياة والموت، قبل أن يُعفى من منصبه لأسباب صحية ويموت بعد ذلك الإعفاء بساعات، الغريب أنهم عندما حملوا خبر وفاته إلى حاكم البلاد بكى عليه بالدموع وقال: «يا خسارة.. هنلاقي زيه فين؟!».

بعدها أصبح لزامًا على كل مسئول في الدولة مهما بلغت سنين عشرته لسيادة الحاكم ومهما توثقت صلته به أن يُعرِّفَ سيادته بنفسه كلما التقاه في جولة ميدانية أو لقاء عام، خاصة أن الأمر تفاقم عندما بدأت تظهر نوبات نسيان مرعبة على سيادته تجعله يسأل أمام الناس: «إحنا جايين هنا ليه.. إنتو عايزين مني إيه»، ولكي لا يتسرب الأمر إلى صحف المعارضة، والأهم إلى القوى الدولية التي تضع المنطقة في دماغها، صدر قرار غير معلن بأن يتم إلغاء جميع الجولات الميدانية لسيادته ويسند إلى رئيس وزرائه افتتاح أي مشروع تنموي في جميع المحافظات.

منذ تلك اللحظة أخذ فريق من كبار أطباء المخ والأعصاب وأساتذة علم النفس الإدراكي وخبراء الطب الشعبي والعطارة يعملون على تقوية ذاكرة سيادته، بحيث لم يوفروا وسيلة من حبوب تنشيط الذاكرة التي تم استيرادها خصيصًا من شتى بقاع الأرض ومرورًا بجلسات استرجاع الذاكرة التي كان يقوم بها أطباء نفسيون أقسموا على ألا يفشوا بسر ما يحدث لأحد وإلا فقدوا ما هو أغلى من ذاكرتهم، حياتهم. وانتهاء بإجبار سيادته على أكل عين الجمل النيء على الريق متحملين سبابه وشتائمه لأنه كان يصر على أكله محمصًا وهو ما حذر منه الأطباء بشدة لأن تحميص عين الجمل كان يفقده قوته في المساعدة على استرجاع الذاكرة.

كل هذا كوم وما حدث في ذلك اليوم المرير كوم آخر!

فجأة وأثناء اجتماع مع الخمسة الكبار في الدولة في شرفة قصر سيادته استعدادًا للخطاب الذي تعوَّد سيادته على إلقائه في العيد الوطني للبلاد، وبعد أن ظل الجميع صامتين احترامًا لشرود

سيادته في الحدائق الغَنَّاء المحيطة بقصره، فوجئوا به يستدير ليسألهم: «هو البلد اللي أنا باحكمها دي اسمها إيه؟». هذه المرة لم يتعامل أحد مع الأمر على أنه مزحة أبدًا، ساد الصمت للحظات قبل أن يتطوع كل منهم لتذكير سيادته باسم البلاد التي يحكمها مشفعين ذلك بجمل مجاملة من نوعية: «كان الله في العون.. البلد دي حكمها صعب قوي يخلي الواحد ينسى اسمه.. ربنا يعين سيادتك علينا يا فندم»، حاول الجميع أن يكتموا مشاعر دهشتهم من أن سيادته بدا كأنه يسمع اسم البلاد الذي ذكَّروه به لأول مرة: «إيه الاسم الغريب ده.. مالقوش اسم غير ده يسموها بيه؟ أنا بافكر أغيَّره».

انتهى الاجتماع لكن اجتماعًا آخر للخمسة الكبار بدأ فور خروجهم من قصر الرئاسة، كانت لدى ثلاثة منهم على الأقل رغبة مُلحَّة في فتح مسألة خلافة سيادته قبل أن يتدهور الأمر أكثر ويصبح فضيحة عالمية، لكن حضور وزير أمن البلاد أو الرأس الكبيرة كما يناديه الجميع كان كافيًا لكبت هذا الموضوع بداخلهم، فكل الذين تجرَّءوا على مناقشة هذا الأمر قبل ذلك دفعوا ثمن مناقشاتهم غاليًا، البعض كلفه ذلك حياته والبعض كلفه منصبه ونفوذه وكل ما يملك.

كان الحاكم الثمانيني قد احتاط جيدًا لأيام شيخوخته بتولية وزير أمن ليس مستعدًّا لأن يسمع كلمة تمس ولي نعمته بأي شكل ولو حتى تحت مسمى مصلحة البلاد واستقرارها، حتى أن ناس البلاد كانوا يتندرون بأن وزير الأمن نجح في تجنيد عزرائيل نفسه لكي يجنبه المساس بسيادة الحاكم عندما تحين منيته، بل إن بعضهم أقسم إنه شاهد عزرائيل خارجًا من مكتب وزير الأمن وهو يقول له: «عدِّي على الخزنة وانت نازل».

كان لاجتماع الخمسة الكبار يومها هدفان: أحدهما قصير المدى وهو أن يتم تدارك هذا النسيان المفاجئ لاسم البلاد أثناء إلقاء سيادته لخطابه في الغد، وهو الخطاب الذي سيشهد تغطية مكثفة من وسائل الإعلام المحلية والعربية والعالمية. أما الهدف بعيد المدى فهو البحث عن حل يجدد ذاكرة سيادته بالقدر الذي لا يخلق للبلاد أية أزمات سياسية أو دستورية وبدون أن يتم الاضطرار لعزل سيادته عن الظهور الإعلامي منعًا لأي قيل وقال لا تتحمله البلاد في ظروفها الراهنة.

«ابن جنِّيَّة يا مذعن بيه»! هكذا قال الأربعة الكبار لزميلهم مذعن المناويشي صاحب أكبر عدد من سنوات الخدمة لرئيس البلاد، لم يأخذ منه الأمر أكثر من دقائق لكي يحقق لهم الهدف قصير المدى:«لازم نبطل نجيب سيرة اسم البلد خالص على لساننا أو في الخطاب الذي سيلقيه سيادته غدًا، إرباك سيادته ليس في مصلحة أحد مطلقًا، الحل أن نستبدل اسم البلاد بكلمة بلادنا طيلة الخطاب، لن يشك أحد في وجود أية مشكلة عندما يسمع سيادته يقول إن بلادنا وهي تحتفل بعيدها الوطني.. إن بلادنا تدخل مرحلة جديدة.. إن الإصلاح الذي تشهده بلادنا..»، فرح الجميع باقتراح مذعن بيه فرحة جعلتهم يقررون التحرك لتغيير الخطاب طبقًا لاقتراح مذعن بيه على أن يتم عقد اجتماع تالٍ لمناقشة الهدف بعيد المدى.

«بلادنا يعني إيه.. أنا ومين يعني.. في حد مشاركني فيها؟!». هكذا جاء أول رد فعل لسيادته أثناء بروفة إلقاء الخطاب المهم الذي سيلقيه في الصباح الباكر، لم يعرف أحد منهم كيف يجيبه، نظروا إلى مذعن بيه لكي يتحدث بوصفه صاحب الاقتراح الذي ظنوه نهاية أزمتهم، بصوت متلعثم قال: «يعني بلاد سعادتك انت والشعب وكده يعني»، جاء رد سيادته صاعقًا: «يعني إيه أنا والشعب.. أنا ليه أتكلم باسم حد ما اعرفوش.. ما تخلوا الشعب هو اللي يحكم بقى». تضرعوا إلى الله أن يضحك سيادته الآن ضحكته الشهيرة وينزل فيهم ضربًا على الأقفية ليقول لهم: «يا ولاد الكلب ضحكت عليكو ونشفت دمكو.. حلوة مش كده؟»، لكن الله لم يستجب دعاءهم أبدًا، لم يكن سيادته

يضحك عليهم أو ينشف دمهم بهزار، كان يتحدث بجدية نشفت دمهم فعلا، «اللي تشوفه سيادتك»، هذا كل ما تجرءوا على النطق به.
مرة أخرى جاء الحل من لدن مذعن بيه: «فعلا غريبة قوي حكاية بلادنا.. سعادتك كالعادة بتبص لبعيد أكتر مننا.. لكن محلولة سيادتك تقدر تقول بلادي»، عندما رد سيادته قائلا بسعادة طفولية لم يشهدوها عليه من قبل: «آه.. كده تمام.. بلادي.. على الأقل أعرف أنا باتكلم عن إيه» نظروا جميعًا لمذعن بيه بامتنان نظرات وعدته بالكثير من الأحضان والقبلات بل والهدايا والعطايا على كونه حاضرًا بقوة وفاعلية في خوازيق مفاجئة كهذه.
عندما علقت صحف المعارضة وناشطو حقوق الإنسان الذين هاجر أغلبهم إلى دول أوروبية على حكاية «بلادي» التي تكررت أكثر من مائة مرة في خطاب سيادته، حمد الجميع الله وشكروا مذعن بيه على أن أحدًا لم يأخذ باله من سر تعمد عدم ذكر اسم البلاد في الخطاب. ذكرهم مذعن بيه بما كان غائبًا عنهم: «عدت على خير.. لكن المهم المرات اللي جاية خاصة المؤتمر الصحفي الذي سيعقد أثناء زيارة رئيس أيرلندا إلى البلاد بعد أيام»، فجأة ودون ذكر أسباب تم منع جميع صحفيي المعارضة والصحف المستقلة ومراسلي القنوات الفضائية من حضور المؤتمر الصحفي لأسباب أمنية، في نفس الوقت تم عقد اجتماع سري مع مندوبي الرئاسة في وسائل الإعلام والصحف الحكومية لكي يتم تلقينهم ضرورة أن يتجنبوا ذكر اسم البلاد أمام سيادة الرئيس وأن يحاولوا التحدث عنها بضمير الغائب ما استطاعوا وفي حالة الزنقة القصوى عليهم أن يسموها «بلد سيادتكم»، كان أحد الخمسة الكبار قد أبدى تخوفه من أن يسأل أحد مندوبي وسائل الإعلام الحكومية عن سر هذه التعليمات، لكن مذعن بيه رد بابتسامة الواثق مؤكدًا أن أحدًا منهم لن يجرؤ حتى على مجرد الاستفسار، وكان مذعن بيه كالعادة على حق.
في ذلك اليوم أحب مندوب كبرى الصحف الحكومية أن يزايد على زملائه فقال في مطلع سؤاله لجلالة الحاكم: «لقد خطت البلد بتاعة سيادتكم خطوات جبارة في مجال الإصلاح الديمقراطي..»، أعجب سيادته للغاية بمصطلح «البلد بتاعة سيادتكم» لدرجة أنه لم يسمع بقية السؤال وبدا مفتونًا بذلك التعبير الذي قاله له مندوب كبرى الصحف بتاعة سيادته، منذ ذلك اليوم أصبح يجد لذة في أن يكرر جملة «البلد بتاعتي» في حواراته التلفزيونية ومؤتمراته الصحفية ولقاءاته الرسمية، بل إنه صار يطلب المزيد من اللقاءات والحوارات والخطب لكي يتلذذ بذكر تعبير «البلد بتاعتي».
لم يعد ممكنًا إخفاء الهوس الجديد للحاكم الثمانيني بالبلد بتاعته، وعندما بدأت الانتقادات على ذلك تتصاعد في العديد من المحافل العامة، كان لا بد من تبرير، على الفور عقد مذعن بيه اجتماعات موسعة ومغلقة لرؤساء تحرير الصحف الحكومية وكبار الكتاب والإعلاميين الحكوميين، في اليوم التالي نشرت مقالات وأذيعت تعليقات تتحدث عن التماهي الذي حدث بين سيادته وبين البلد لدرجة أنهما صارا روحين حلًّا بدنًا واحدًا، وأنه لم يعد ممكنًا أن تفصل البلد وحاكمها عن بعضهما أبدًا ولو حتى على مستوى اللغة. لكن ذلك كله لم يكن مقنعًا لأحد، على الأقل لهيئة تحرير أكبر صحيفة معارضة خرجت على قرائها منتقدة ما يحدث بوصفه انحطاطًا سياسيًّا لا مثيل له، صحيح أنها أغلقت بعد أيام بتهمة التخابر مع الولايات المتحدة، بعد أن نشرت صورًا لرئيس تحريرها مع من وُصف بأنه عميل بارز في المخابرات الأمريكية، لم تذكر الصحف الحكومية أنه لم يكن سوى مدير مكتب المخابرات الأمريكية في عاصمة البلاد وأنه التقى برئيس التحرير بصحبة لفيف من المسئولين الأمنيين.

بعد ذلك لم يكن أحد آخر من قادة الصحف المعارضة والمستقلة مستغنيًا عن شرفه السياسي لذلك لم يشر أحدهم ثانية لهذا الموضوع، لكن المعترضين وجدوا أماكن أخرى للتعبير عن غضبهم على بلادهم التي أصبحت بتاعة سيادته. ما هي إلا أيام وامتلأت حوائط المدن الكبرى باسم البلاد مكتوبًا بالخط العريض كأنه إعلان وجود، لم يكن هناك ثمة هتافات صارخة أو شعارات ساخطة، كل ما تمت كتابته كان اسم البلاد التي لم يجرؤ حاكم يومًا ما على أن ينسبها لنفسه. انتشرت عناصر الأمن في كل الشوارع تحمي مجهودات عناصر البلدية التي أخذت تمحو اسم البلاد من كافة الحوائط، لكي لا يمر سيادته ولو صدفة من شارع ما فيجد اسم البلاد أمامه فيسأل عن معناه وينفضح الأمر.

لم يكن الأمر سهلا على الخمسة الكبار. كلما كانوا يخرجون من مشكلة بفضل تدابير مذعن بيه كانت تواجههم مشكلة أخرى. يكفي أنهم اضطروا لإلغاء حضور سيادته للاحتفال السنوي لرفع علم البلاد على آخر نقطة محررة منها، فلم يكن ممكنًا أن يجبر الحاضرون على تحية العلم بقولهم: «تحيا البلد بتاعة سيادته». لم يكن ممكنًا أن تحيا البلاد باسمها أمامه فتثور بداخل سيادته مشاعر الحيرة والاضطراب. من يومها حتى المدارس لم يعد أحد فيها يحيي العلم ولا يصدح باسم البلاد. كل الأغاني الوطنية التي تذكر اسم البلاد اختفت في ظروف غامضة، لم يبق منها إلا كوبليهات مثل: «لكن أجمل من بلدي لا... يا أحلى البلاد يا بلادي.. بلادي زمانًا طويلا أذلك الغاصبون». حتى النشيد الوطني تم الاكتفاء بالبيت الأول منه وحذف البيت الثاني الذي يحتوي على اسم البلاد الأصلي. لم تعد تذاع في وسائل الإعلام المشاركات الرياضية الدولية التي كان الجميع مضطرًا لذكر اسم البلاد فيها تجنبًا للفضيحة الدولية، وأصبح ما يذاع من تلك المشاركات على القنوات الفضائية مواد ممنوعة يتناقلها الناس سرّا عبر الموبايلات هي والأغاني الوطنية الممنوعة والأفلام الحربية التي تهتف باسم البلاد، حتى المناهج الدراسية تم تغييرها على عجل فلم تعد تذكر اسم البلاد إلا بوصفها البلد بتاعة سيادته. وبعد أن أثار الأمر انتقادات واسعة من المنظمات التربوية الدولية تم إلغاء مادة التاريخ في كل الصفوف الدراسية بزعم التركيز على المستقبل وعدم النظر إلى الخلف، قوبلت الاعتراضات الشعبية بسياسة خلطت بين الإعلان عن علاوات اجتماعية ومالية لكل أفراد الشعب وبين إجراءات قمعية سحلت المعترضين في الشوارع.

اضطر الناس إلى الهروب إلى السخرية متحدثين عن البلد اللي ما تتسمى والبلد اللي بالي بالك. أصبح الناس يلتقون سرًّا في البيوت والغرز لكي يغنوا لبلادهم ويرددوا اسمها. الأطفال كانوا يتلقون دروسًا خصوصية سرية في التاريخ تذكرهم ببلادهم التي أصبح لزامًا عليهم أن يكتبوا اسمها كل يوم قبل النوم لكي لا ينسوها. تعايش الناس مع الوضع شيئًا فشيئًا، صار اسم البلاد اسمًا سريًا يتداوله الناس فيما بينهم همسًا، لم ينمح اسم البلاد إلى الأبد، لكن ذلك لم يغير أبدًا من الحقيقة المؤسفة التي فرضها سيادته، حقيقة أنك لم تعد تستطيع كمواطن أن تذكر اسم بلادك جهارًا نهارًا، فقد صارت البلد وحتى إشعار آخر بتاعة سيادته.

في آداب النكاح

هذه الدنيا لا تدوم على حال.
من كان يصدق أن إمام مسجدنا الصغير الذي ظللنا ردحًا من الزمن نتهمه بالجبن والهروب من مواجهة الواقع، يقرر فجأة ودون أية مقدمات أن يقول كلمة الحق في وجه سلطان جائر أو في قفا سلطان جائر إن شئت الدقة.
عندما اختار فضيلته أن يحدثنا في خطبة الجمعة عن آداب النكاح كانت حكومة البلاد قد قررت أن تُحْكِمَ القبضة على شعبها الذي بدأ يفلفص فتلغي قانون الطوارئ وتعدل دستور البلاد، فاتحة الاثنين على بعضهما فيتطرأ الدستور وتصبح الطوارئ دستورًا.
في بداية الخطبة كنا نستعد كعادتنا للنوم على موجات صوته الوثير، لكن فضيلته أطار الوسن من أعيننا عندما لعلع صوته بغتة في جنبات المسجد: «واعلموا يا عباد الله أنه لا نكاح بالإكراه، لا بد أن يتم النكاح بالتراضي، والرجل الذي يجبر زوجته على المعاشرة ليس رجلا، وعليه أن ينفصل عنها إذا أدرك أنها لا تطيق عشرته، لقد تصدعت البيوت وزادت فيها الخلافات وامتلأت بالتعاسة عندما ابتعدنا جميعًا عن تطبيق آداب النكاح وعلى رأسها أن يقدم الناكح لنفسه قبل النكاح حتى يحرص على استمتاع شريكه، بدلا من طلب حقه في الاستمتاع فقط».
لم أكن أنا وحدي الذي بدأت التفرس في ملامح الرجل التي كنت قد نسيتها من فرط إدمان النوم في خطبه، لَعَلِّي أستشف من ملامحه هل ما يقوله لنا الآن رمية من غير رام وأننا نحمله ما لا طاقة له به، أم أنه فعلا يتكلم في السياسة لأول مرة في حياته مقررًا أن يفش غله على طريقته.
ملامحه المتشنجة وصوته العالي والزبد المتطاير من فمه ويده التي لم تكن تتحرك طيلة الخطبة فإذا به يشوح بها في كل اتجاه وتوازنه الذي كاد يختل من فرط الانفعال فيسقط به من على الدكة التي نعتبرها منبرًا، كلها كانت قرائن دفعتنا لتلقي ما يقوله الرجل على مستوى أكثر عمقًا مما يبدو عليه، كل شكوكنا زالت لنتوحد بكل جوارحنا معه عندما طفق يقول بأعلى طبقات صوته: «وكما لا يبنى النكاح يا عباد الله على الإجبار والكراهة فإنه لا يبنى على الغش والتدليس والتزييف، فبئست العشرة والمعاشرة إذا بنيت على الكذب والتدليس، إن إنهاءها يكون واجبًا في حالة كهذه بأي شكل ودون النظر إلى أي عواقب».
ولأن الزمن عودنا ألا تدوم لنا فرحة، كان لا بد ألا تدوم فرحتنا بالصحوة التي طرأت على إمام مسجدنا، فسرعان ما نكص الرجل على عقبيه عندما دخل إلى المسجد فجأة رجل شديد سواد الثياب شديد ضخامة الجسم لا يبدو عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، لكن الإمام كان يعرفه على ما يبدو، إذ إنه بمجرد دخوله عاد فجأة إلى صوته الأليف وملامحه الطيبة وجسده المستقر على المنبر كعود قصب، وبدون أن يأخذ وقتًا للتفكير تهدج صوته وهو يقول: «إن على الزوجة ذنبًا كبيرًا إذا لم تسلم نفسها أثناء النكاح إلا إذا كانت مريضة مرضًا يمنع الزوج من مباشرة حقوقه، بل إنها لا تكون مستحقة للنفقة واللقمة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له أو كما قال».
عندما قام للخطبة الثانية قرر فضيلته على الهواء مباشرة أن يخصصها للحديث عن آداب الفراش مُحذرًا إيانا بشدة ـ ويشهد الله أنني لا أتبلى عليه ـ من أن يندفع أحدنا للنوم على السرير دون أن يقوم بتنفيض السرير لكي يوقظ أخاه من الجن إذا كان قد راح في النوم على السرير. لم تتصاعد همهمات الاستنكار في المسجد كما توقعت فقد عاد غالبية من فيه للنوم، لكنني لاحظت أن جاري رأفت أخذ يتابع كلام الإمام باهتمام شديد عرفت سره بعد خروجنا من الصلاة، عندما قال لي

رأفت بارتياح شديد إن كلام الإمام فسر له أخيرًا لماذا كلما ارتمى على سريره شعر أن مؤخرته ترتطم بجسم صلب.

حيوان البلاد الأول

لا أحد يدري متى طقت الفكرة لدى فخامته. على حين غرة جمع المستشارين عن بكرة أبيهم معلنًا رغبته التي لم يجرؤ أحد على مصارحته بأنها ستكون أضحوكة البلاد كلها ربما لسنوات طويلة.
لم يكن من المعتاد أن يسأل أحد جلالته عن أسرار أفكاره وكيف تتنزل عليه ولا من أين ولا متى. الأرجح لدى البعض أن الفكرة جاءته بعد زيارته الأخيرة للولايات المتحدة الأمريكية التي شهد خلالها انشغال صديقه العزيز الرئيس الأمريكي والسيدة قرينته لشوشتهما بولادة سيدة حيوانات أمريكا الأولى كلبة البيت الأبيض نيكول.
«أريد أن أختار حيوانًا رسميّا للبلاد». هكذا قال سيادته للجمع الذي جيء به على ملا وجهه، لم تصدر عن أحد من الحاضرين ردة فعل تلقائية ساخرة كما كان ينبغي أن يحدث، كان الجميع قد تعودوا على مفاجآته منذ أن تجاوز عامه الخامس والثمانين متربعًا على كرسي الحكم، لكنها كانت المرة الأولى التي تدخل الحيوانات إلى حيز مفاجآته التي صارت على مر السنين مادة خصبة للفكاهة في صحف العالم أجمع. رغبته المفاجئة في توريث حفيده ذي الأعوام العشرة بدلا من ابنه الطامح للعرش بعد أن حقق الحفيد أعلى «سكور» تم تسجيله في تاريخ البلاد في لعبة «الإسنيك» لعبة سيادته المفضلة، قراره بأن تصبح الشوارع كلها اتجاهًا واحدًا في يوم عيد ميلاده، تحويله الصحيفة الرسمية الأولى للبلاد إلى صحيفة مختصة بالوفيات فقط، قراره بأن ينتج أعضاء مجلس الشعب شريط كاسيت يغنون له أغاني تُهنِّئُه بعيد ميلاده، وضعه زعيم المعارضة في قفص أسُود حديقة الحيوانات ساعة الغداء والتعامل مع الأمر بعد ذلك على أنه حادث انتحار.
كل هذا كوم وموضوع الحيوان الرسمي للبلاد هذا كوم ثان. المشكلة أن سيادته لم يعط أحدًا الوقت للتفكير في الأمر أو التشاور حوله، لكن ذلك على أي حال لم يمنع رئيس مجلس شورى القوانين من أن يقف ويرتجل خطبة عصماء أثنى فيها على القرار الرئاسي، الذي لم يكن حتى قد تحول إلى قرار بعد ولم ينشر في الجريدة الرسمية:
«إن قراركم السامي سيثبت للعالم أنه حتى الحيوانات لم تحرم من عطفكم الأبوي وسيضع بلادنا في مصاف الدول المتقدمة التي تضع الحيوان في أسمى منزلة». كان الكل ينظر إليه وهو يرتجل خطبته بالفصحى الضالة المضلة وهم يحدثون أنفسهم بصفعه أو إتيانه من حيث لا يحتسب، ليس فقط لأنه سبقهم إلى منافقة سيادته وقرار سيادته، بل لأنهم لم يستطيعوا يومًا أن يجاروه في قدراته المذهلة على أكل الكتف ولحس العتب، لكن سيادته نفسه تكفل بالانتقام لهم منه:
«إنت هتخطب لي فيها.. أعرف أنه قرار تاريخي وإلا ما كان قد راودني.. أنا أريد أن أختار حيوانًا رسميّا لا أن أسمع خطابًا من حيوان رسمي». سبقهم رئيس مجلس شورى القوانين ذات نفسه إلى الضحك المجلجل على دعابة جلالته السامية بحقه، وربما انشغاله بالضحك هو الذي جعل وزير الأمن المستتب يسبقه ويسبق الجميع هذه المرة بحس أمني نادر إلى أول اقتراح للحيوان الرسمي:
«الكلب ولا مؤاخذة جلالتك هو الذي ينبغي أن يكون حيوان البلاد الرسمي.. على الأقل سيقرب هذا الاختيار بيننا وبين الولايات المتحدة وسيكون بوسع سيادتك اصطحاب كلب البلاد الرسمي في زيارتك التالية ليرتبط بأواصر صداقة مع كلبة أمريكا الأولى وستكون وزارتنا فخورة بأن تقدم لسيادتكم أفخر كلابها المدربة لكي تختار منها كلبًا يليق بهذا الشرف الرفيع». كان الوزير يتحدث وهو فخور بحسه الأمني الذي جعله يأتي بما لم يأت به الأوائل، لكن رد جلالته صفعه بقوة

وأشمت فيه من كانوا يحسدونه قبل لحظات: «يا سلام يا فالح وعرفتها لوحدك.. هل أنا غبي حتى أتوه عن اختيار الكلب كحيوان رسمي للبلاد.. فكرت في ذلك.. لكنني تذكرت أنني أحكم شعبًا متخلفًا غارقًا في خزعبلات الماضي.. سيطلع عليَّ منه في اليوم التالي مليون شيخ يتحدث عن نجاسة الكلاب وكراهية الدين الحنيف لها وسيسأل: «هل يغسلون آنية قصر الرئاسة سبع مرات أولاهن بالتراب بعد أن تلغ الكلاب فيها». هبَّ فضيلة الحبر الأعظم برشاقة لا تليق باكتنازه المترهل ليقول لجلالته: «خسئ من ينطق كلمة في حق جلالتكم وكلب جلالتكم.. كل أحاديث كراهية الكلاب فيها نظر ويمكن لهيئة كبار العلماء أن تصدر حكمًا قاطعًا بتحريم التطاول على الكلاب باعتبارها خلقًا من خلق الله.. ويمكن لنا أن نستعين بكتاب في تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب وهو كتاب مشهود له بين كتب التراث». انبسطت أسارير الجمع فقد وجدوا أخيرًا حلا شرعيّا يعفيهم من تفكير يرونه مهينًا لعقولهم، ها هو الشيخ الأكبر قد حلها كعادته، لكنها عادت لتتعقد مع رد سيادته الممتعض: «ستقول للشعب من هنا عن تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب وسيحول ذلك من هنا إلى مادة للسخرية منا جميعًا باعتبارنا بعضًا من لابسي الثياب الذين تفضل عليهم الكلاب.. هذا شعبي وأنا أعرفه.. خليك يا مولانا بعيدًا عن هذا الموضوع، نشيلك للتقايل».

لم يجرؤ أحد على أن يذكر اسم القط كاقتراح لحيوان البلاد الأول، فالجميع يذكر كيف كاد القط يودي بحياة جلالته في حادث ليس من اللائق أن يُذَكِّرَ أحد سيادته به الآن، كان سيادته يفتتح مركزًا رئاسيّا لألعاب الفيديو جيم التي أصبحت اللعبة الأولى للبلاد منذ غواها حفيده المفدَّى، عندما لفت انتباهه طفل شارد يجلس بعيدًا عن أضواء العدسات والكاميرات يحتضن قطّا مشمشيّا صغيرًا، شيء ما دفعه إليه جارّا وراءه قطيع موالسيه، نظر إليه الطفل بعينين حزينتين دون أن ينافقه بكلمات من التي حفظها زملاؤه وغنوها بين يدي سيادته، ما إن مد سيادته يديه ليحتضن القط حتى اندفع القط مخربشًا له بعدوانية ملفتة للانتباه، مع نزول أول قطرة دم من كف سيادته فتح الحراس النار على القط فأردوه صريعًا، وأصيب الطفل الحامل له بطلقتين أقعدتاه على كرسي متحرك منذ ذلك التاريخ، فيما بعد اتضح أن والد الطفل كان يعمل رئيسًا لهيئة الآثار وتم اعتقاله منذ سنتين لرفضه افتتاح بيوتي سنتر للسائحات في قلب أهم آثار البلاد، تم تصنيف الحادث كمحاولة اغتيال دبرتها الأم بتخطيط من الأب الغاضب، ولا يدري أحد حتى الآن أين ذهبت العائلة كلها. فيما بعد تسربت تشنيعة مجهولة المصدر مفادها أن القصة التي تسربت عن عائلة الولد كانت مختلقة جملة وتفصيلا، وأن ما حدث وراءه انتقام شخصي من القط لجنسه لأن سيادته كان مولعًا في صغره بتعذيب القطط وإغراقها في زير المياه الملاصق لجامع قريته.

لذلك ولذلك كله تعامل جميع حاضري الجلسة الرئاسية مع القط كأن الله لم يخلقه أساسًا. كذلك فعلوا مع الحمار بالطبع، فقد كانت أكثر النكت السياسية انتشارًا في البلاد كفيلة بإسقاطه من الاعتبار. كذلك الحال فيما يخص الجاموس والبقر والثيران وكافة الحيوانات التي لا يليق أبدًا أن تكون حيوانات أولى للبلاد لاعتبارات سياسية ولياقية وأخلاقية.

كاد الحصان أن يفوز بها، لكن اعتراض جهات الأمن جاء فوريّا بسبب عدم القدرة على السيطرة على الحصان أمنيّا خاصة أن سقوط جلالته من على ظهره في هذه السن كفيل بنقله إلى الرفيق الأعلى مباشرة، ناهيك عن مخاطر تسرب صور لعملية وضع جلالته على الحصان باستخدام آلات حديثة سيتم استيرادها خصيصًا من الخارج.

تم اقتراح الأرنب، لكن أدهى الحاضرين سياسيًا قال إنه سيفسر تفسيرًا سياسيًا خاطئًا بوصفه المثل الأعلى الذي تريد الدولة أن يكون عليه المواطن، قال سيادته: «ملعون أبوهم ولا يهمني.. أنا أخاف أن لا أصمد فآمر بذبحه ليعمله الطباخ على شوية ملوخية فأنا أموت في الأرانب». ضحك الجميع متمنين لسيادته شهية طيبة ومتجاوزين عن اقتراح الأرنب الذي لم يكن ليصلح كحيوان رسمي في أي حال؛ فمن الصعب الإمساك به إلا بداخل قفص، مما قد يجلب تلسينات لا لزوم لها مفادها أن البلاد ليست ناقصة أقفاصًا ولا مساجين.
«ما رأي سعادتك في النملة باعتبارها رمزًا للعمل والإنتاج؟»، بدا الاقتراح وجيهًا لكنه لم يصمد أمام الصعوبات الفنية المتمثلة في اصطحاب سيادته للنملة وظهور سيادته في كاميرات الصحافة والتلفاز وهو يتباسط مع كائن غير مرئي لتلك الكاميرات وما يمكن أن يلسن به الشعب الذي يعرف جلالته جيدًا قباحته وطول لسانه. «ثم أي عمل وأي إنتاج.. هل سنضحك على بعض»، هكذا جاء تعليق سيادته الختامي وائدًا ذلك الاقتراح.
تطوع أغبى الحاضرين باقتراح النحلة فأمر سيادته فورًا بوضعه في غرفة مع نحلة عقابًا له على اقتراحه المندفع مع أنه كان للمفارقة وزير البحث العلمي. لم يجرؤ أحد على اقتراح أي نوع من أنواع الطيور بعصافيرها وحمائمها وببغاواتها وديوكها وفراخها وسائر أجناسها؛ لأن أحدًا لم يتحمل مغبة أن يقترح على سيادته أن يكون مخالطًا للطيور، صحيح أن وباء إنفلونزا الطيور كان قد اندثر منذ سنين بعيدة، لكن ملايين الأرواح من الطيور والبشر التي حصدها في طريقه لا زالت تمثل ذكرى سيئة يصعب أن تندثر أبدًا، ناهيك عن احتمال عودة الوباء في أية لحظة وعندها ستتم على الفور خوزقة من كان وراء اقتراح أن يكون جلالته مخالطًا للطيور والعياذ بالله.
بعد ساعات طويلة مرهقة للغاية انتهى الاجتماع الرفيع باختيار رئيس تحرير أقرب الصحف إلى قلب جلالته لكي يكون حيوان البلاد الأول، بعد أن قام رئيس أكبر جامعات البلاد بتذكير جلالته بأن الإنسان حيوان ناطق.

على تـلات بنات

قبل أن يرزقه الله بابنه رضا الذي جاء على تلات بنات.. لم يكن الأسطى عيد يحب سيادة الرئيس أبدًا.

كانت لدى عيد أسبابه، فشركة النسيج التي عمل فيها سنين عددًا مهددة بالبيع في أية لحظة، وحتى لو ظل فيها بعد البيع حسب وعود مسئوليها فإن مرتبه منها على حد تعبيره الجارح: «مش هيكفيه يجيب لبناته أولويز». شقته ضيقة كالحُقّ والخروج منها مغامرة غير مأمونة العواقب، «المنتئة» التي يسكنها لم تُشرق عليها بعد شمس أزهى عصور الصرف الصحي، فلوس الدروس التي يأخذها المدرسون حارًا ونارًا كرَّهته في العلم واللي بيتعلموه، حتى الفرحة الكروية التي تهوِّن العيشة الضنك على غيره حرمه الله منها عندما أراد أن يخلقه «مالوش في الكورة».

جاء رضا إلى الدنيا غلطة، لكنها كانت الغلطة الوحيدة التي فرح لها عيد، إللي كان نفسه من زمان في ولد يشيل اسمه ويشد من أزره، الفرحة جعلته يرسل على غير عادته تلغرافًا إلى مسئولي تنظيم الأسرة يشكرهم على حبوب منع الحمل الفاسدة التي زودوا بها المدام والتي أتاحت له أخيرًا أن يرزق بولد مبهج محا بعد أيام من ولادته كل أسباب العداوة بين أبيه ورئيس البلاد، وأحالها حبّا جارفًا جعل عيد يعتزل صمته السياسي ويذهب إلى الخطاط ليكتب له لافتة ضخمة تقول «أنا والمدام والأولاد بنحب الريس والمدام والأولاد»، ومع أن اللافتة التي جادت بها قريحة عيد لم يكتب لها أن تعلق في بلكونة الشقة؛ لأن البلكونة كانت هي والعمارة آيلتين للسقوط، فإن ذلك لم يمنع عيد من تعليق لافتته المحبة لرئيس البلاد خارج شباك الصالة المطل على المنور بتشجيع من زوجته التي نبهته إلى فائدة إضافية للافتة: «كده ما حدش هيستجري يرمي مية الغسيل في المنور».

عندما ضحك رضا للمرة الأولى لم تكن سُرَّته قد سقطت بعد، كان أبوه يجلس في الصالة يشرب الشاي الحبر وينكد على أم رضا زرابة البنات: «ما كنتي تجيبيه من الأول يا وش الفقر»، بينما كانت أم رضا تبكي لسبب آخر هو أن الندل محمود قابيل في التمثيلية صارح شريكة حياته نهال عنبر أخيرًا بأنه تزوج عليها سرّا.

لحظتها وعندما قطع التلفزيون فرجة أم رضا لإذاعة خطاب سياسي مهم للسيد الرئيس، استدار رضا متوقفًا عن الرضاعة ونظر إلى التلفزيون وضحك ضحكة مجلجلة أدخلت البهجة إلى الصالة بعد سنوات من الانقطاع.

يقسم عيد غير حانث إنه بفضل السيد الرئيس لم يشكُ رضيعه رضا من كل ما يشكو منه الأطفال حديثو الولادة من أريفة وأرق وحموضة وغازات، مشاهدته لخطب الرئيس وجولاته كانت تجعله يجلجل بالضحك، وسماعه لصوت سيادته كان يدفع به سريعًا إلى نوم هانئ يتمناه أقرانه.

ضحكات رضا كانت وش السعد على أبيه الذي رزقه الله بعلاوة غير متوقعة، وعلى أمه التي وجدت شغلا في منزل «ناس جامدة» تتقاضى عليه أجرًا سخيّا يكفي لجعلها لا تفكر أبدًا في الدعاء لله بأن يتوب عليها من خدمة البيوت، بل إن رضا كان حتى وش سعد على أخواته البنات اللاتي توقف الأب عن التفتِّ عليهن كل يوم.

جدة رضا لامت ابنها مطولا وهي تشير له إلى صورة الرئيس: «شفت بقى إنك كنت ظالم الراجل البركة ده طول السنين اللي فاتت.. ربنا فاتح له قلوب الأطفال أحباب الله.. مش شايف الوله كل ما يشوفه يضحك.. كل ما يسمعه ينام.. دي كرامة والنبي كرامة».

يبقى المتعوس متعوسًا حتى لو أنجب رضا!!
زالت البهجة فجأة كما حلت فجأة. لم يعد رضا يتوقف عن البكاء والصراخ والقيء والإلخ إلخ، كلما قربوه من التلفزيون أثناء نشرة ستة، تحول صراخه إلى حالة هستيرية أفقدت الجيران صوابهم وأفقدت عيد علاقاته الكويسة معهم، انتهى الأمر باحتراق التلفزيون بعد أن «قشط» رضا عليه متبعًا القشط بنوبة قيء حادة، بعدها بيوم بيعت شركة عيد واتضح أن العلاوات الأخيرة كانت بمثابة المرهم الذي يسبق الخازوق، اثنتان من البنات أصيبتا بالحصبة الألمانية والثالثة لم تستنضف الحصبة أن تصيبها، وآخرة المتمة وقعت الأم في البلاعة المجاورة للقسم بعد أن احتجزها أمناء الشرطة ساعتين لتدلي بأقوالها في محضر حررته ضد سائق ميكروباص «كان عايز يمد إيده»، ومدها فعلا.
بعد أن داخ عيد بابنه على الدكاترة هداه الله إلى طبيب بارع طلب من أمه أن توقف إرضاع رضا لأن لبنها فاسد بسبب سوء تغذيتها، وكتب لرضا على لبن صناعي أقل فسادًا، وعندما حكى عيد للطبيب بعد تردد قصة رضا مع الرئيس متسائلا عن الذي «قلبهم على بعض»، طلب منه الطبيب ألا يظلم السيد الرئيس أبدًا لأن ابنه رضا منذ ولادته لم تكتحل عيناه برؤية السيد الرئيس ولم تشنف آذانه بسماع صوته، لأنه بكل بساطة خُلِقَ محرومًا من نعمتَي السمع والبصر.

من خشاش الأرض

عاشور بائع الخبز أو بتاع العيش كما يناديه أهل الحتة رجل مُطَّلع على مجريات الأمور.
لذلك عندما طلب أمين الشرطة من عاشور أن يأتي معه إلى القسم لكي يدلي بأقواله في البلاغ المقدم ضده من صاحب عربية ملاكي ادعى أن تروسيكل عاشور خبط له الجنب اليمين، لم يكن يتوقع الأمين أبدًا أن يقول له عاشور: «ما تآخذنيش يا باشا مش هاجي معاك إلا لما توريني موبايلك الأول».
عندما استوضح الأمين من عاشور معنى كلامه: «هتهزر يا روح أمك». قال له عاشور شارحًا: «أصل لو موبايلك فيه كاميرا مش هاجي معاك يا باشا.. اقتلني أحسن ما أتفضح.. أبويا لو شافني متصور عريان هيقطعني».
لسبب غير مفهوم، لعله بنْيَة عاشور الجسدية الهائلة التي ربما جعلت اصطحابه إلى القسم بالقوة أمرًا متعذرًا، أو لعله تعاطف خفي نبع من الأصول الريفية التي تجمع عاشور والأمين، أو ربما لسبب آخر لا يعلمه إلا الله، قرر الأمين أن يشرح لعاشور خطورة مقاومته انتهاك حقوقه الآدمية، وهو أمر لن يضعه فقط في مصاف الخطرين على الأمن، بل سيضعه في دماغ الباشا الضابط شخصيًا، وبدلا من أن يأكل عاشور لطختين على قفاه أمام صاحب العربية الذي سيتحرر له محضر لكي يذهب به إلى شركة التأمين سيصبح عاشور وقفاه زبونين دائمين على القسم، «وساعتها مش هاجي أجيبك لوحدي يا ابن والدي.. هتتشكل لك قوة ضبط وإحضار وانت مش قد الدرمغة دي».
لم يطمئن قلب عاشور إلا عندما أقسم له الأمين إن الأمور مش هتوصل لدرجة تصويره وهو عريان، وحتى لو تطورت لما هو أسوأ لا سمح الله فإن الضابط لن يستطيع تصويره ليس فقط لأن الإضاءة في القسم ضعيفة، بل لأن «موبايل الباشا محجوز في التوكيل بقى له يومين».
عندما دخل عاشور إلى القسم آمنًا مطمئنًا بصحبة الأمين، أصابته حالة هياج مفاجئة لمَّا شاهد الضابط ممسكًا بموبايل فخيم في يده، وبينما كان عساكر القسم يحاولون إحباط محاولة هروبه بأعقاب البنادق، كان الأمين يقول لعاشور بصوت هامس وقد آلمته نظراته الناضحة بإحساس الخديعة: «يا حمار اهبط ده موبايل صاحب العربية اللي مقدم البلاغ.. الباشا بيتفرج على الأوبشنات الجديدة اللي فيه».
عندما اقترب الباشا من عاشور الملقى على البلاط يحاول كتم أوجاعه، صرخ عاشور بعزم ما فيه: «أبوس إيدك ما تصورنيش يا باشا.. كله إلا التصوير.. اعملوا اللي انتو عايزينه بس ما تصورونيش». بعد أن فهم الباشا بمساعدة الأمين طبيعة مخاوف عاشور، جن جنون الباشا لأن عاشور افترض فيه أنه وحش خال من الآدمية يمكن أن يقوم بجريمة بشعة كهذه لا يقوم بها إلا أصحاب النفوس المريضة الذين يشوهون ثوب الشرطة الناصع البياض، ولذلك قرر أن يؤدب عاشور بتعليقه من عرقوبه وضربه بسلك الكاسيت لكي يتوقف عن الظن السيِّئ الذي يجعله يظلم الناس بدون وجه حق.
في التخشيبة التقى عاشور بحرامية ومشبوهين وشمامين وأطفال شوارع، كلهم حاولوا تبريد ناره دون جدوى، وحده الذي نجح في ذلك إمام مسجد ينتظر ترحيله إلى أمن الدولة، قرأ لعاشور الكثير من القرآن حتى راح في النوم في حجر مولانا، وعندما صحا أحسن كثيرًا، سأل عاشور الشيخ عن الذي جاء بفضيلته إلى مكان كهذا، فقال له إنه يدفع ثمن كلمة حق قالها عندما سأله أحد

المصلين: «هل الحزب الوطني اللي بيحكمنا هيروح النار؟»، فقال الشيخ بعد أن استحضر هيبة الله عز وجل: «جاء في الأثر أن امرأة دخلت النار في قطة حبستها، وإذا كنا بالتأكيد أكرم عند الله عز وجل من القطط، فبالتأكيد سيذهب الحزب الوطني إلى النار لأنه لا هو أطعمنا ولا هو تركنا نأكل من خشاش الأرض.. هذا والله أعلم».

الرئيس الضيف

«أمك داعية لك يا دكتور فريد». هكذا قال له زملاؤه في مجلس الوزراء بعد أن صدر قرار جمهوري باختياره رئيسًا للوفد المرافق لرئيس الدولة العظمى الذي قرر فجأة أن يزور البلاد. يهز الدكتور فريد رأسه مبتسمًا وهو يسترجع الجملة المجاملة التي لا تخلو من روائح الحسد، مع أنه يعلم أن آخر حظ أمه من الدنيا بعد الشهادتين كان الدعاء عليه بأن يفقد الله أمله ويفرج عليه اللي ما يسواش، لم تقل اللي يسوى لأنها ماتت وهي تعتقد أنه لم يعد أحد يسوى بعد أن رأت زوجها وشريك كفاحها يموت بحسرته بعد أن شخط فيه ضناه سعادة الوزير طالبًا منه بحسم ألا «يتنطط له كل شوية في الوزارة بطلب جديد».

نفض فريد عن ذهنه تلك الذكرى المؤلمة وقرر ألا يفسد هذا الصباح الجميل أبدًا، شكر الله على إتقانه لغة الرئيس الضيف التي تعلمها خلال سنوات بعثته الدراسية في الدولة العظمى التي درس فيها أرفع ما قدمته للبشرية؛ القانون المدني، قبل أن يعود إلى بلاده ليساهم في وضع أحط ما قدمته دولته للبشرية؛ قانون الطوارئ.

منذ أن عاد الدكتور فريد ليضع قدمه في الجامعة لم يضيّع وقته أبدًا، منجزه الأول كان مشروع قانون نشره في أكبر صحف البلاد؛ قانون هيبة الدولة، هكذا سماه، من أجله سعى لتقديم نفسه لابنة رئيس تحرير الصحيفة الكبرى التي عرف أنها طالبة في الكلية، هي لم تكن تحضر أبدًا إلى الكلية، الدكاترة كانوا يذهبون إليها في قصر باباها، فريد توسط لدى صديق له لكي يأخذ له موعدًا معها، ومن خلالها وصل إلى أبيها، أعجب رئيس التحرير بالفكرة التي كانت البلاد تحتاجها وسط موجات الانتقاد الشرس التي أصبحت تستهدف رئيس البلاد، ولم يكن يصلح لها إلا قانون حاسم يجرم التطاول على هيبة رئيس الدولة وكبار المسئولين.

نشر رئيس التحرير المشروع وتحمس له مفردًا له صفحات عديدة مصحوبة بصور في أوضاع علمية للدكتور فريد. وئد المشروع سريعًا بعد عواصف الجدل التي ثارت ضده في البرلمان والصحف والأحزاب والتي كانت كفيلة بلفت انتباه الدول العظمى إلى خطورته وتحذير رئاسة البلاد منه ليصدر قرار غير معلن بوأد المشروع في مهده، يقول الثقات إن الدكتور فريد كان يعلم مصير مشروعه مسبقًا، ولذلك لم يبدُ عليه الغضب بتاتًا وهو يتلقى أنباء إجهاض مشروع القانون وتوقف النشر عنه، كما لم يبدُ عليه الضيق أبدًا من عشرات المقالات التي سلخت جلده واتهمته بما لا تستطيع حتى البغال عليه صبرًا، كان يقرأ ما يكتب عنه ويضحك سعيدًا، «الصنارة غمزت»، هكذا قال لزوجته التي كانت مشغولة في تلك الفترة بالبحث عن سكة للانضمام إلى أي نادي ليونز أو إينرويل إن تيسر.

فريد جمع كل المقالات التي كتبت ضده وصنع منها نسخًا عديدة وأرسلها إلى مكاتب كبار مسئولي البلاد مرفقة بشكاوى مريرة وبليغة من انحدار لغة الحوار إلى هذا الحد الذي ينذر بالخطر.

كانت الصنارة قد غمزت فعلا. صديق مقرب لابن الرئيس اتصل بالدكتور فريد ذات مساء سعيد وطلب منه أن يشاركهم في اجتماع مغلق مع عدد من العقول المعروفة بوطنيتها لمناقشة سبل تطوير العمل داخل الحزب الحاكم للبلاد الذي تركه الرئيس الأب لابنه منذ فترة بعد أن دخل عليه مرة وقال له: «زهقان يا بابا.. شوف لي حاجة أعملها».

من أول نظرة كان الحب بين ابن الرئيس والدكتور فريد، حبّا تأجج بتلك المذكرات والخطب والأوراق البحثية التي كان يكتبها الدكتور فريد ويقدمها لابن الرئيس لكي يقرأها في الاجتماعات

الحزبية والعامة على أنها من بنات أفكاره شخصيّا، كان حبّا محمومًا وصل إلى ثمرته التي كان يرجوها الدكتور فريد، وهي طلب شخصي من الابن أن «يكون الدكتور فريد معانا في الحكومة الجاية».
كان منصبه الوزاري تافهًا، أو هكذا اعتبره فور تلقيه نبأ ضمه إلى الحكومة كوزير لحقوق الإنسان، تلك الوزارة المستحدثة التي طنطنت صحف الحكومة طويلا لكون بلادنا هي التي تنفرد بين دول الأرض بوجود وزارة لحقوق الإنسان، لم يشغله ما كتبه أهم كاتب ساخر معارض في زاويته اليومية عن أن الحكومة كان ينبغي أن تسمى الوزارة حقوق الحيوان لأنها كانت دائما تعامل أبناء الشعب كالحيوانات، كان ما يشغله هو هذه البلوى التي رموها عليه من بين كل الوزارات، ما الذي يمكن أن يكسبه المرء من وزارة لحقوق الإنسان غير مرتبه وحوافزه وسيارة الوزارة وحرسها، يعلم أنه لم يصل من الحظوة بمكان لكي يعطوه وزارة البترول أو الإسكان مثلا، لكن ليتهم أسندوا إليه وزارة خدمية كالكهرباء أو الصرف الصحي حتى لكي يتمكن من تأمين مستقبل أولاده.
لم يستسلم للإحباط كثيرًا، بعد أسابيع قليلة أصدر قرارًا بفرض رسوم على كل شكوى تقدم للوزارة قدرها مائة جنيه كبدل تحقيق في الشكوى، تولى مساعده للشئون المالية تضبيط نسبته من بدلات الشكاوى التي تدفقت بمئات الآلاف فور أن انطلقت الحملة الإعلامية التي تبشر بعصر جديد لحقوق الإنسان في البلاد. ومشت العملية، ليس كما تمشي مع باقي زملائه، لكن الحمد لله رضا.
أفاق الدكتور فريد من شروده الطويل أمام المرآة وهو يرتدي ملابسه، كان مبتهجًا بذلك الاستعراض الخاطف لرحلة صعوده الشهابي، أحس بخدر لذيذ يسري في أعماقه، خدر لم يحس به من أيام زياراته الأسبوعية لمومسات الدولة العظمى اللواتي عرف بفضلهن أنه ما كانش عايش. لكن من قال إن الدكتور فريد نال غاية مراده لكي يترك نفسه لخدر انتشائه بما حققه، المشوار لا زال طويلا، والمحطة التي يقف فيها الآن مهمة للغاية، يمكن أن تنقله من مجرد رجل محسوب على ابن الرئيس إلى مربع رجال الرئيس الثمانيني الذي بات يخشى الجميع نوبات غضبه المفاجئة والتي تأتي دائمًا على قفا رجال ابنه، «لما أموت الأول ابقى اورثني وبهدل رجالتي يا سعادة ولي العهد»، هكذا حرص أن يقول لابنه بصوت عالٍ خلال اجتماع مغلق لقيادة الحزب؛ عندما تعمد الابن أن يهاجم رجال أبيه الذين اعتبرهم أكبر معوق في طريق حزبنا إلى التغيير. لكن فريد يعلم أن عليه فعل ذلك بشكل غير محسوس لا يلحظه أحد، لكي لا يجد نفسه في حالة زيارة مفاجئة لعزرائيل وقد خسر الجلد والسقط، سيتطلب الأمر منه أن يتعب ويشغل دماغه لكي يصل إلى حلول مبدعة، الأمر يستحق العناء.
لم تكن زيارة الرئيس الضيف للبلاد محفوفة بالمسرات كما تخيل الدكتور فريد، بل كانت حافلة بالأزمات والمشاكل.
كانت الأزمة الأولى التي واجهها الدكتور فريد مثله تمامًا، فريدة من نوعها، لاص الكل فيها، وضربوا أخماسًا في أسداس، لكنه حلها بشكل أصبح حديث الأوساط الرسمية في البلاد كلها. كان رجال الرئيس الضيف خلال الإعداد لترتيبات الزيارة المرتقبة قد طلبوا بشكل مفاجئ من نظرائهم أن يرتبوا ضمن البرنامج الترفيهي المقرر حفلة رقص شرقي تحييها اعتدال راقصة البلاد الأولى على مدى ثلاثين عامًا، والتي كان الرئيس الضيف قد وقع في غرام فنها ومفاتنها منذ أن كان سفيرًا لبلاده لدينا قبل عشرين عامًا، وقع الطلب كالصاعقة على الذين سمعوه، لكنهم لم يجرءوا

على القول بأن تحقيق طلب كهذا أصبح مستحيلا لأن اعتدال اعتزلت الرقص تمامًا، ليس ذلك فحسب بل وتحجبت معلنة براءتها من ماضيها المبتذل وأصبح لها برنامج اجتماعي «مصروف عليه كويس» في قناة دينية خليجية، حاول فريد ورفاقه أن يطرحوا بدائل أخرى لاعتدال أكثر شبابًا وأكثر امتلاء مستعينين بالصور والرسوم التوضيحية، لكن رجال الرئيس الضيف امتعضوا كاشفين النقاب عن أن طلب الرئيس الضيف ليس له علاقة بالرغبة في رؤية بطن عارية تهتز بقدر ما له علاقة بالنوستالجيا التي تجتاحه هذه الأيام وهو في طريقه لكي ينهي مشواره السياسي بعد فترتين رئاسيتين حكم فيهما الدولة العظمى.

خلال غداء عمل ووسط جو المودة الذي علا وتصاعد، حكى رجال الدولة العظمى لنظرائهم كيف وقع رئيسهم في غرام اعتدال منذ رآها أول مرة، وكيف صارت امرأة أحلامه منذ اللحظة التي مرغت رأسه بين ثدييها وهي ترقص له وحده في حرم السفارة مساهمة منها في دعم العلاقات بين البلدين، وكيف كانت تلك الليلة الليلاء بداية لهوس عارم له بالرقص الشرقي ظل يتزايد عبر السنين مسببًا له الكثير من المشاكل مع السيدة الأولى التي انفصلت عنه فعليًا منذ سنوات بعد أن سئمت ما ينشر في صحف التابلويد عن هوس زوجها بالراقصات الشرقيات الممتلئات.

هكذا وجد الدكتور فريد نفسه مطالبًا بأن يتصدى للتفاوض مع اعتدال التي طردت كل من ذهبوا إليها لمفاتحتها في رغبة ضيف البلاد الكبير، لم يتوقع أحد منهم أن يكون نمسيًا إلى حد أن يذهب إليها مسلحًا بفتوى من شيخ مشايخ البلاد تعلنها بأن الضرورات تبيح المحظورات وأن رقصها لمرة واحدة بنيَّة جلب الخير للبلاد أمر تستحق عليه الكثير من الثواب من الله، لكنهم أيضًا لم يتوقعوا أن تمزق اعتدال الفتوى بفجاجة وترميها في وجه فريد، معلنة أسفها على حال البلاد التي أصبح شيخ مشايخها أشطر منها في الرقص على هوى حكامها. ذهلوا جميعًا وهم يشاهدونها تقف لتهز جسدها المدملج ـ لا زال ـ بابتذال وهي تقلد ما تصورته طريقة شيخ المشايخ في الرقص، لم تفارق الابتسامة فم الدكتور فريد وهو يشاهد عرضها المثير للامتعاض، لكنه فاجأ الجميع باستخدام هاتفه المحمول ليتصل بوزير المالية ويضعه على الإسبيكر طالبًا منه أن يتم فتح ملفات ضرائب الراقصة اعتدال، لمحاسبتها على الملايين التي جنتها خلال ثلاثين عامًا من الرقص للتأكد، مجرد التأكد، من كونها قد دفعت حق المجتمع والدولة في ذلك، خاصة أنها عندما تحجبت حصلت على فتوى من أشهر مشايخ البلاد تؤكد حقها في الاحتفاظ بأموالها مع تطهيرها بالصدقات.

بعد أقل من ربع ساعة انصرف الدكتور فريد وعلى وجهه ابتسامة ظافرة تاركًا اعتدال لكي تتناقش مع مصممي الأزياء حول مواصفات الحشمة التي يجب مراعاتها في بدلة الرقص التي سترتديها أمام الضيف الكبير، وكيف أنها تؤمن أن الإغراء «عمره ما كان بالعُري»، الإغراء إحساس لو وقر في القلب يصدقه الجسم فورًا.

الذين صدَّقوا ما حدث يومها لم يصدقوا أبدًا أن يستحق الدكتور فريد على إنجازه مكالمة رضا ومودة من رئيس البلاد الذي قيل إنه كان يتابع المفاوضات سرّا بالصوت والصورة: «عايزين الشطارة دي مع البنك الدولي يا دكترة.. ولَّا انت فالح في الرقاصات بس؟!». لعدة أيام ظل الدكتور فريد يحكي الجملة الأخيرة له بتلذذ لزوجته وأصدقائه بوصفها دليلًا على انبساط الرئيس منه، فالجميع يعلم أن سيادته إذا أهان أحدًا بطريقته المحببة يكون قد دخل إلى قلبه، وله في ذلك وقائع لا حصر لها ليس هنا مجال ذكرها.

لم يكن المغرز التالي الذي واجه الدكتور فريد في مهمته الجديدة بنفس طراوة مغرز اعتدال، كان مغرزًا حقيقيّا، لكن فريد كان كعادته حاضرًا وخلاقًا ومبدعًا وقدها وقدود. فجأة طلب الرئيس الضيف أن يدرج على برنامجه زيارة لزعيم المعارضة الذي صدر عليه حكم بالحبس لمدة عامين بعد أن تم اتهامه بالشروع في قتل مواطن فقير عندما خبطه بسيارته الفارهة، صحيح أن صحف المعارضة كشفت بعدها أن المواطن الفقير ليس سوى مخبر معين في مباحث أمن الدولة، لكن من قال إن مخبري أمن الدولة ليس لهم الحق في عبور الطريق بسلام؟! عندما استمع الدكتور فريد إلى الطلب من نظيره رئيس البعثة الرسمية للرئيس الضيف لم يغضب ولو للحظة، لم يتلعثم أو يرتبك أو حتى يتوقف لبرهة لكي يفكر في رد، ضحك بشدة ثم أثنى على الطلب مقسمًا بشرفه أنه كان يفكر في أن يقترح تلك الزيارة لكي تكون فرصة للرئيس الضيف لكي يتأكد من زيف تقارير منظمات حقوق الإنسان في بلاده، والتي لا تفتأ تتحدث عن اضطهاد زعيم المعارضة وإدخاله إلى السجن زورًا وبهتانًا وتعرُّضه لمعاملة سيئة داخل السجن، لكنه خشي أن يتم فهم الاقتراح خطأ فتراجع عنه وهو الآن سعيد كل السعادة بأنه يفكر بنفس العقلية التي يفكر بها أصدقاؤنا في الدولة العظمى، كان مرءوسو الدكتور فريد ينظرون إليه دون أن يفهموا ما يدفعه لمثل هذا الكلام وهو يعلم مثلهم أن زعيم المعارضة ربما كان في هذه الساعة يأكل بالصرمة القديمة داخل السجن. فور خروجهم من الاجتماع سألوه عن الذي هببه فأجابهم بجملة صارمة ـ الواقع صارت كل جُمَله صارمةً منذ مكالمة الرئيس الأخيرة له ـ «رتبوا لي معاد مع وزير الداخلية وقولوا له عايزين رئيس مصلحة السجون يبقى موجود».

لم يفهم ناس البلاد في اليوم التالي كيف نشرت الصحف الحكومية على صدر صفحاتها الأولى خبرًا يعلن عن تنظيم زيارة للرئيس الضيف لزعيم المعارضة في محبسه، الفقرة الثانية من الخبر كانت تصريحًا للدكتور فريد يؤكد فيه أن الزيارة جاءت بناء على طلب من سيادة رئيسنا المفدى لأن بلادنا ليس لديها ما تخفيه طبقًا لنص كلمات سيادته.

على مدى أسبوع كامل كانت البلاد تتساءل عن سر هذا الانفتاح الديمقراطي المفاجئ ومدى ارتباطه بالضغوط الخارجية الشرسة على البلاد من أجل مزيد من الانفتاح الديمقراطي، بل إن البعض بدأ يتساءل قائلا: هل كانت صحف المعارضة تكذب عندما قالت إن زعيم المعارضة كان يتعرض للاضطهاد في محبسه. المحيطون بالدكتور فريد كانوا يتساءلون عن سر تكرار المكالمات التليفونية التي تأتيه على تليفونه المحمول والتي يقف الدكتور فريد لها رهبة واحترامًا ويبدؤها دائمًا بوقفة استعداد مصحوبة بـ «تمام يا فندم»، مساعدوه المقربون كانوا يقولون إن تلك المكالمات كانت تأتي من رئيس الجمهورية شخصيّا، لكن الجميع يعلم أن جملة «تمام يا فندم» هذه كانت لزمة الدكتور فريد لمخاطبة من هم أعلى منه منصبًا، وهم حتى هذه اللحظة كثيرون.

بعد أسبوع بان للجميع أن نوبة الشفافية التي أصيبت بها الحكومة لم تكن سوى جزء من خطة الدكتور فريد الجهنمية التي أهلته لكي يكون رجل الساعة لدى النظام الحاكم؛ قطعت قنوات التلفزيون المحلية برامجها لكي تذيع الخبر، تمكنت أجهزة الأمن من إحباط خطة إرهابية دبرها زعيم المعارضة في سجنه لاغتيال الرئيس الضيف الذي كان سيزوره بعد أسبوعين في محبسه، الخطة دبرها بالاتفاق مع عدد من المسجونين، الجنائيين والسياسيين، وتم كشفها خلال ضبط أسلحة كان يجرى تهريبها إلى السجن، كما كشفت ذلك اعترافات تفصيلية لكافة المتهمين، نشرتها الصحف في اليوم التالي وأذاعتها جميع القنوات الفضائية مصحوبة بصور لزعيم المعارضة مع المساجين في أماكن متفرقة من السجن، لم يهتم أحد لما نشرته صحف المعارضة عن كون العملية

ملفقة وأن صفقة عقدت مع المساجين المعترفين وجميعهم من المحكوم عليهم بالمؤبد تم فيها تخفيف عشر سنوات من مدد أحكامهم مقابل أن يلتزموا بالخطة التي أذهلت رئيس البلاد عندما استمع إليها من الدكتور فريد بحضور وزير الداخلية الذي لم يوافق عليها عندما عرضت عليه، مما اضطر الدكتور فريد لرفع الأمر لأعلى المستويات، أعلى المستويات قال للدكتور فريد بعد انتهائه من عرض خطته: «يا ابن الجنية.. إنت جنس أمك إيه.. مش لو كنتوا بتفكروا كده كان زمانكو خلصتوني من قرف الجماعات الإسلامية من زمان»، مع أن وزير الداخلية أخذ يضحك مرحبًا بما سمعه كأنه كان يتلقى تهنئة لا كلمتين في جناب جنابه، إلا أن الدكتور فريد لم يفوت الفرصة لكي يرفع يده ويطلب الكلمة لكي يشيد بأجهزة الأمن وبطولاتها ودورها في الحياة السياسية المصرية، وهي كلمة أوقفها قمع الرئيس له بقوله: «إيه إنت خايف منهم ينْدُوك.. ما تخافش أنا خلاص حطيتك في دماغي».

كان ذلك حدثًا تاريخيّا بكل المقاييس. فآخر مرة قال فيها الرئيس لأحد «أنا حطيتك في دماغي» كانت لرئيس البرلمان الحالي الذي قام أثناء عمله كرئيس للجنة التشريعية في البرلمان قبل خمسة عشر عامًا بتفصيل قانون يكفل حظر مناقشة ميزانية رئاسة الجمهورية وأولاد رئاسة الجمهورية وأقارب رئاسة الجمهورية وأصهار رئاسة الجمهورية بوصف كل ذلك «سرّا سياديّا ليس من حق أحد الاطلاع عليه». لذلك لم يكن الدكتور فريد بحاجة لتأجيل الاحتفال حتى يرى كيف سيحطه الرئيس في دماغه، يكفي أن قرار سيادته قد صدر بحطه في دماغه، وما عليه إلا أن يحتفل وينتظر.

بعدها لم تقم أجهزة أمن الدولة العظمى بطلب إلغاء زيارة زعيم المعارضة فقط، بل وأوصت سفارتها بقطع أية قنوات اتصال مع أحزاب المعارضة التي لم تتخلص بعد من تجارب العمل السري. تلقى الدكتور فريد طلب إلغاء الزيارة بمزيد من الأسف، وأوضح لوفد الدولة العظمى أن بلاده قادرة على حماية الرئيس الضيف في أي مكان يقرر الذهاب إليه وأنه يأمل أن يكون طلب الإلغاء ليس له علاقة بأي مخاوف أمنية، لأن سيادته سيتأكد من أنه بين أهله وناسه وأن البلاد التي احتضنته وهو دبلوماسي ستضعه على رأسها وهو رئيس ضيف. بعد دقائق صار زعيم المعارضة نسيًا منسيّا عندما سلم الدكتور فريد لوفد الدولة العظمى ملفًّا ذهبيّا قال إنه هدية متواضعة من بلاده اعتذارًا على التفكير الشنيع لزعيم المعارضة، قيل فيما بعد إن الرئيس الضيف اغرورقت عيناه بالدموع هو وزوجته بسبب ذلك الملف الذي أقسم المقربون منهما إنه لم يكن هناك ثمة شيء قربهما من بعض خلال السنوات الماضية كما فعل ذلك الملف.

«يا ابن اللعيبة» قالها الرئيس للدكتور فريد وهو يتصفح الملف الذي عرضه عليه الدكتور فريد قبل إرساله، كان الملف الذهبي أكثر من مجرد ملف، كان عبارة عن دفتر ذكريات حافل وحميم أعده الدكتور فريد للرئيس الضيف وزوجته يتضمن صورًا للفيلا التي سكن فيها عندما كان سفيرًا، ومركبه النيلي المفضل الذي كان يعشق الإبحار به في رحلات ليلية عارمة بمحبته لزوجته وقتها، مسجده التاريخي المفضل، الكنيسة التي تعود على زيارتها في أعرق أحياء البلاد المسيحية، وحتى الطباخ الشعبي الذي رافقه طيلة فترة عمله. كل ما له علاقة بالسنين الثلاث التي قضاها الرئيس الضيف في البلاد كان موجودًا في ذلك الملف الذي قاد الدكتور فريد فريق عمل من أجل إعداده. «ما تعمل لي ملف زي ده يا فريد.. المدام هتفرح بيه قوي»، لم يكن الرئيس يتحلى بخاصية الاندهاش أبدًا، لكنه ذهل ـ لدرجة لم يتمكن فيها من إطلاق شتائمه الودودة المعتادة

ـ عندما نهض فريد منحنيًا من توه وهو يقدم لسيادته ملفًّا متخمًا لكنه أيضًا ذهبي اللون به صور للرئيس وزوجته ظلا عدة ليالي بصحبة الأولاد والعائلة يتذكران أين وكيف التقطت.
عدّى الدكتور فريد. شرخ. ولم يعد ممكنًا أن يوقف انطلاقه أحد بعد الآن، لم يعد زملاؤه قادرين على مجاراة تفكيره الجهنمي، أخذوا يلعنون اليوم الذي قرر فيه الرئيس الضيف أن يزور بلادهم، فلولا تلك الزيارة المشئومة لما كان من أمر الدكتور فريد ما كان.
كل مساعدي كبار المسئولين عاشوا أيامًا صعبة بسبب ذلك الملعون الدكتور فريد، الكل كان يجمع طاقم مساعديه لكي ينهال فيهم بَسْتفة وشتيمة وشخطًا وشخرًا: «آه يا كسالى يا معدومين الخيال..إيه لازمتكم ولازمة الفلوس اللي بتلهفوها لما انتو مش عارفين تعملوا حاجة في حياتكم يا ولاد الـ...». حتى رؤساء تحرير الصحف الحكومية وقعوا في حيص بيص، لم تعد أشكال نفاقهم التقليدية مجدية البتة مع خيال النفاق الجديد الذي أشاعه الدكتور فريد في مصر، رئيس تحرير ثاني أكبر صحف البلاد عقد مسابقة بين المحررين الشبان لمن يتقدم بفكرة مبتكرة لمواكبة زيارة الرئيس الضيف للبلاد، أسفرت المسابقة عن كارثة محققة عندما نشرت الصحيفة موضوعًا على صفحتين عن الأفكار التي تعلمها الرئيس الضيف من حكمة وحنكة رئيس البلاد عندما كان سفيرًا لدينا وكان رئيس بلادنا ـ «أطال الله عمرنا لكي نتنعم بحكمه» ـ في ريعان شباب حكمه. كان المحرر الشاب قد عكف طيلة أسبوع على إثبات أن كل ما حققه رئيس الدولة العظمى لبلاده من قفزات سياسية واجتماعية واقتصادية كان مستوحى من أفكار وخطب وبرامج رئيسنا العظيم خاتمًا موضوعه المطول بعبارة للرئيس الضيف قال فيها إن المنطقة بل والعالم بأسره بحاجة ماسة لرئيسنا حفظه الله.
لم يهنأ المحرر بإكمال يومه الأول في المنتجع الساحلي الذي أمر رئيس التحرير بسفره إليه هو وزوجته على نفقة الجريدة كمكافأة له، إدارة شئون العاملين طلبت منه العودة فورًا لكي يتسلم قرار فصله وباقي مستحقاته، لأن موضوعه الملعون تسبب في أزمة طاحنة بين البلدين كاد الرئيس الضيف يلغي زيارته على إثرها، بعد أن نشرت كبرى صحف بلاده ملخصًا للموضوع على صدر صفحتها الأولى متسائلة ما إذا كان رئيس الدولة العظمى ذاهبًا لكي يوجه الشكر للرئيس الحقيقي الذي كان يحكمنا من الباطن. بعدها بيوم كانت الصحيفة ذاتها تنشر خبرًا عن احتمال إلغاء الزيارة وعن رفض رئيس الدولة العظمى الرد على مكالمة من نظيره الذي حاول أن يعبر عن رفضه التام لما نشر وعن أنه مستعد لإغلاق الصحيفة كترضية لرئيس الدولة العظمى.
وحده الدكتور فريد كان قادرًا على حل أزمة كهذه، في اليوم التالي نشرت صحف البلاد كلها حوارًا أجراه صحفي من الدولة العظمى كان زميلا للدكتور فريد أثناء بعثته، أرسل له فريد طائرة خاصة لإحضاره إلى البلاد، كان في انتظاره ملف به أسئلة حول العلاقة الخاصة التي تربط بين الرئيسين الصديقين وكيف أن رئيس الدولة العظمى كان له فضل في كثير من القرارات التي اتخذت في البلاد وكيف أنه كان مساندًا لكل عمليات الإصلاح والتغيير التي شهدتها البلاد طيلة الفترة الماضية، بالطبع لم يكن في الملف أسئلة فقط بل كانت به أجوبة أيضًا عكف الدكتور فريد على إعدادها بصحبة عدد من كبار خبراء مركز الدراسات الاستراتيجية الوحيد في البلاد. ومرة أخرى بفضل الدكتور فريد عدّت على خير.
لم يعد أمام خصوم الدكتور فريد الآن سوى أن يلجئوا لإيقاف رحلة صعوده المتسارعة بضربه تحت الحزام فقرارهم السابق بانتظار انتهاء الزيارة حتى يتفرغوا له لم يعد مجديًا، فربما انتهت الزيارة بوصوله إلى موقع رئاسة الوزراء أو بتدبيره لانقلاب عسكري يوصله شخصيّا إلى الحكم،

لذلك وجبت زنبقته الآن وفورًا. لم يكن قد ترك لهم ثغرة لينفذوا منها إليه سوى انشغاله الدائم بكسب رضا الرئيس الأب وتجاهله التام للوريث القادم الذي كان ولي نعمته وسبب سعده، قرروا أن يتركوا الدكتور فريد سادرًا في نشوته برضا الرئيس الأب عنه، وبمكالماته التي يهب لها واقفًا وصارخًا من أعماقه «تمام يا فندم»، مكتفين بقضاء كل أوقاتهم في إيغار صدر الرئيس الابن ـ كما كان الشعب يسميه ـ على ذلك الجاحد الذي لم يصن النعمة ولم يقدر أنه لولا ما فعله الرئيس الابن من أجله لظل نكرة كما كان وكما ينبغي أن يكون.
عندما حل موعد زيارة الرئيس الضيف إلى البلاد كانت جميع الأوساط السياسية تنظر بقرف لتقافز الدكتور فريد الدائم بين الرئيسين ولعبه لأدوار المترجم المقتدر والنديم الحميم والسمير المهذب، كان الجميع يشعر بالشماتة في ذلك الرجل الذي لا يعلم أنه سيطير من كرسيه فور رحيل الرئيس الضيف، لأنه راهن رهانًا خاطئًا، راهن على الماضي الذي سيولي بدلا من المستقبل المشرق الآتي لا محالة، كان الكل يتعجب في جلسات النميمة السياسية على ذلك الإنسان الذي أوتي كل هذا الدهاء لكنه لم يتمكن من قراءة الواقع قراءة سليمة تمكنه من اختيار قرار صائب، «هو كده البني آدم لما يغره عقله.. مهما راح ومهما جه بشر.. أصله برضك ما يقدرش ياخد كل حاجة.. بكره يقع والسكاكين تنزل عليه من كل ناحية.. ده ناسي إن الرئيس الابن لدعته والقبر.. ده ما بيرحمش أبدًا.. بكره الناس تترحم على أيام أبوه.. على الأقل أبوه دمه خفيف.. يا نهار اسود على السواد اللي هتشوفه يا دكتور فريد».
لم يشفْ الدكتور فريد السواد أبدًا، لم تشفْ عيناه إلا السرور والحبور وأطايب الأمور، كان قد وصل إلى ذروة تحليقه في اليوم الأول للزيارة بجولة النوستالجيا التي نظمها للرئيس الضيف وزوجته والتي اهتزت الدولة العظمى فرحًا وطربًا بصور الرئيس وزوجته وهما يحتضنان بعضهما في مركب نيلي صغير لعب فيه الدكتور فريد دور المراكبي مستمتعًا بنجاحه ليس فقط في إيصال علاقات البلدين إلى أعلى ذراها، وضمان أكبر قدر من المساعدات المالية لبلاده، وقطع الطريق أمام كل تخرصات المعارضة وتقارير منظمات حقوق الإنسان، بل نجاحه في تحقيق معجزة بشرية هي إعادة قلبين عجوزين لينبضا بحب كاد يموت.
يومها أعلن رسميّا عن إلغاء إحياء اعتدال للحفل الساهر المقام على شرف سيادة الرئيس منعًا لتجديد أي توتر بين الزوجين، وتم الاكتفاء بفقرات تراثية راقصة محتشمة وفقرة غنائية لكورال أطفال الرئيس الذي كان قد اكتسب في الأوساط الفنية مكانة مماثلة لتلك التي يحظى بها الحرس الجمهوري بين أجنحة جيش البلاد.
عندما استأذن الرئيس الضيف أكثر من مرة خلال الحفل لكي يذهب إلى دورة المياه ذكره رئيس البلاد مداعبًا بأنه حذره خلال العشاء من تناول وجبة البلاد الشعبية الأولى الطعمية المحشية والتي سأل الرئيس الضيف عنها بمجرد جلوسه إلى الطاولة، لم يترجم الدكتور فريد بدقة جملة «إنت اللي جبته لنفسك.. قلت لك هتحمى عليك بالليل»، بل حوّرها لتصير جملة أرق بكثير محتفظًا لنفسه بحق التصرف السياسي، «الرئيس يقول لك تحب نعدم الطعمجي»، ضحك الرئيس الضيف متجهًا إلى الحمام بصحبة حرسه والدكتور فريد الذي أصر على أن يحظى بشرف اصطحاب سيادته إلى الحمام. لم يكن ممكنًا أن يتوقع أحد أن ذهاب الرئيس الضيف إلى الحمام ثلاث مرات كل مرة استغرقت ما بين سبع إلى عشر دقائق لم يكن له أدنى علاقة بالطعمية، وأنه كان يستمتع في كل مرة بتابلوه استعراضي تحييه اعتدال على رخام دورة المياه التي جُهزت خصيصًا لذلك، وأنه أصر في كل مرة على أن يمرمغ رأسه في صدرها الذي زادته الأيام عرضًا وعمقًا

وارتفاعًا، وبالطبع لم يكن ممكنًا أن يعرف أحد أن تلك الفكرة الجهنمية التي تفتق عنها ذهن الدكتور فريد كانت سببًا كافيًا لمنحه أرفع أوسمة الدولة العظمى بعدها بأشهر.
في اليوم الثاني والأخير من الزيارة وخلال المؤتمر الصحفي الختامي للزيارة طرب أعداء الدكتور فريد لرؤية ابن الرئيس وهو يتجاهل يد الدكتور فريد الممدودة له بالسلام، كان واضحًا أن الدكتور فريد يعيش الآن آخر اللحظات السعيدة في حياته، وأن البلاد ستشهد في الغد إقلاع طائرة الرئيس الضيف وإقلاع الدكتور فريد عن مسرح السياسة إقلاعا لا هبوط بعده.أخذ الجميع ينظرون باحتقار إلى فريد ـ من غير دكتور ـ وهو يحاول تصوير الأمر على أنه دعابة من ابن الرئيس ويتعجبون من قدرته على كبت مشاعر الامتقاع والخوف في داخله، لو حدث ما حدث لأحدهم لعملها على روحه فورًا ولهوى يقبل نعلي ابن الرئيس طالبًا الصفح والسماح، لم يكن أي منهم يعلم أن ضحكة الدكتور فريد وقتها لم تكن مصطنعة بل كانت نابعة من أعماق قلبه، لو علموا لانحنوا هم على قدمي الدكتور فريد لكي يهروها تقبيلا ويطلبوا منه العفو والسماح على ما فرطوا في جنبه.
في منتصف كلمة الرئيس الضيف جاءت المفاجأة التي لم يكن يتوقعها أحد حتى الرئيس الأب. بالطبع توقع الجميع أن يبدأ الرئيس الضيف كلمته بالثناء على رئيس البلاد وعلى الإصلاحات الجبـارة المذهلـة التي يقودهـا بكل تأنٍ وحكمة، وبالطبع توقعوا أن يشيد بالتجربة الديمقراطية التي أصبحت مثلا يُحتذى به في المنطقة، لكنهم لم يتوقعوا أبدًا أن يشن الرئيس الضيف هجومًا كاسحًا على صحف المعارضة التي استهدفت ابن الرئيس بحملات صحفية جارحة تستكثر عليه حقه في المشاركة السياسية وتدعي أن والده يعده لكي يصبح وريثًا له في الحكم، سكت الجميع كأن على رءوسهم الطير وهم يشاهدون الرئيس الضيف يمد يده إلى الأوراق الموضوعة أمامه على المنصة ويخرج منها ملفًّا ذهبيًا ضخمًا ليلوح به قائلا بحماس: «لقد بعث إلى صديقنا الدكتور فريد مشكورًا بملف كامل عن الإنجـازات التي ساهم ابن فخامة الرئيس خلال الفترة الماضية في تحقيقها وهي إنجازات لم تقتصر فقط على مجال إصلاح الحزب الحاكم ولم تقتصر على مناقشات نظرية وفكرية مهمة بل امتدت إلى زيارات ميدانية لمواقع مختلفة في أنحاء البلاد وقد تأثرت كثيرًا وأنا أشاهد الحفاوة التي يلقاها من أبناء الشعب البسطاء، وقرأت ملخصًا للأفكار التي طرحها ابن سيادتكم، وقد تكرم الدكتور فريد بترجمتها مشكورًا، ويبدو أن ابن سيادتكم تعلم منكم الكثير وأنا أسجل هنا كم أنا فخور به وكم أنا مندهش لأنه لا يلقى التقدير الكافي من البعض، للأسف لم أرزق بأبناء لكي أختبر مشاعر الأبوة لكنني أعلم أنه لو كان لدي ابن مثل ابن سيادتكم لما تأخرت في السعي لإيصاله إلى كرسي الحكم في بلادي».
لم يكن أحد قد أفاق من مفاجأة ما قاله الرئيس الضيف، حتى فوجئ الجميع بالدكتور فريد ـ الفائق الوحيد وقتها ـ يقف ليصفق بحرارة وإيمان ناظرًا بكل حب ومودة لابن الرئيس الذي كان لا يزال فاغرًا فاه غير مستوعب لما سمعه مفكرًا في الحرج الذي يمكن أن يقع فيه لو طلب منه الرئيس الضيف أن يشرح له فكرة من الأفكار التي كتبها الأفَّاق فريد، عندما اشتعلت القاعة بالتصفيق وهي ترى رئيس البلاد يمسح دمعة نزلت من خده ويغادر المنصة لكي يحتضن ابنه ويقبله ويقدمه إلى الرئيس الضيف لكي يقبله ويحتضنه هو الآخر، كان ذهن الرئيس الابن مشغولا بجلد ذاته بعنف وهو يشاهد دموع الفرحة وهي تنساب من عينَي الدكتور فريد الذي كان يبكي كأم في حفلة تخرج ابنها الحيلة، أخذ الرئيس الابن يفكر في سؤال مهم هو كيف عجز عن الشعور بكل ذلك الحب الذي كان يكنه له الدكتور فريد في صمت وكم كان سيخسر لو كان قد أسلم أذنيه لحساد

الرجل وكارهيه. الرئيس الضيف كان مشغولا بالتفكير في طريقة لاستقدام اعتدال إلى بلاده في أسرع وقت دون أن تشم زوجته خبرًا. أما الرئيس الأب فقد كان ينتظر انتهاء المؤتمر سريعًا لكي يزغد الدكتور فريد في كتفه ويقول له جملته الأثيرة: «يا ابن الجنية.. عملتها ازاي؟!».
الوحيد في القاعة الذي لم يكن يفكر أبدًا في ذلك التطور المذهل الذي حدث، كان الدكتور فريد، ليس فقط لأنه سبق أن رأى ما يحدث في خياله، بل لأنه كان يفكر حينها في ما يتوجب عليه إعداده من محتويات الملف الذهبي التالي.

.. ولا تأكل بثدييها!

«عايزة أقول لك كلمتين على انفراد». هكذا قالت لي أم هند شغالتنا الخالدة أو «متيرة منزلنا» كما تحب أن ندعوها، بعد أن اقتحمت علينا جلستنا الصباحية الرايقة وقد اكفهر وجهها واحولت عيناها أكثر ووضعت يدها على ما يفترض أنه وسطها. نظرت إلى زوجتي بارتباك وظننت أن لعبتنا الصغيرة التي بدأناها بعد واقعة البامية قد انكشفت.

كانت واقعة البامية المؤشر الأخطر على تفاقم الحالة الصحية لأم هند بشكل لم يعد يُجدي معه صبرنا المعتاد عليها. كانت أم هند يومها قد وضعت حلة البامية على الغسالة بدلا من عين البوتاجاز التي ظلت مشتعلة على الفاضي لأكثر من ساعتين، جاءتنا بعدهما أم هند صارخة:«الأنبوبة خلصت بعد ما ضهري اتحنا وانا باقمع البامية واحشي الفلفل.. مش تركبوا غاز طبيعي وترحمونا من وجع القلب ده». إدراكي أننا لا نمتلك أنبوبة هو الذي جعلني أطير إلى المطبخ لكي أقفل محبس ماسورة الغاز وأنا أقول لزوجتي بلغة العيون: «لقد اتخذت قرارًا وأرجو أن تعينوني عليه، لقد انتهى عصر أم هند ولا بد من الاستعانة في أعمال المنزل بأم أخرى ليس من أجلنا نحن فقط بل أيضا من أجل هند التي لا نريدها أن تعيش باقي عمرها يتيمة».

من يومها وأم جابر تأتي حد وتلات وخميس لتصلح ما تفسده أم هند اتنين وأربع وجمعة.

في أيامها الثلاثة التي ما يعلم بيها إلا ربنا وبمجرد أن تدخل من الباب، تنظر أم هند إلى الشقة باشمئناط وتقول لنا بتأنيب: «لحقتوا تبهدلوا الشقة.. لازم وسطي يتقطم يعني..الحمد لله إن الشقة ضيقة». تحاول زوجتي إقناعها بأن تستريح اليوم حفاظًا على صحتها أو بالأصح حفاظًا على الشقة، فترفع أم هند جانب شفتها الأيمن حتى يلزق في عضم منخارها وتقول بكبرياء دوق إنجليزي عاطل: «ليه هتشغلوني إحسان ولا شفقة.. طول ما فيَّ نفس مش هبطل شغل.. ومش هموت إلا على فرشتي». ننظر إلى بعضنا داعين الله أن يستجيب فتموت على فرشتها فعلا بدلا من أن تموت على فرشتنا، ثم نكتفي بأن نقول لها: «طيب على راحتك بس بلاش طبيخ عشان إحنا معزومين بره». دائمًا لا تكتفي بالصمت: «يا خويا هو إيه اللي كل يوم معزومين بره.. ما تكنوا في بيتكو شوية بدل ما تتاقلوا على الناس.. هتردوا العزايم دي كلها إمتى؟!». بعدها تدخل إلى المطبخ لترى بواقي طبيخ أم جابر فتقول لزوجتي ما تقوله كل مرة: «بركة إنك رجعتي تطبخي تاني.. مفيش حاجة تطفش الرجالة إلا الستات اللي ما بتطبخش».

في العادة لا تحب زوجتي أن يكلمني أحد على انفراد سواء كان أمّا أو أبًا، لكنها هذه المرة كانت سعيدة جدّا بترك أم هند لتستفرد بي.

عليَّ أن أواجه هذه العاصفة القصيرة الفتاكة لوحدي، قررت أن أكون صريحًا معها وزي ما تيجي تيجي، لكن الله كان رحيمًا بي فأعفاني من مواجهة لم أكن مستعدًّا لها أبدًا، «بص بقى أنا عارفاك طول عمرك جدع، ومتأكدة إني لو قصدتك مش هتكسفني»، لم نتنفس بعد، الحمد لله.

«أؤمري يا أم هند»، «الأمر لله يا سيد الناس.. عايزاك تشوف لي سكة في وزارة الكوى العاملة»، مرة ثانية عدت لأقلق، هل ستنظم أم هند إضرابًا في البيت وتعتصم حتى الموت، «ليه يا أم هند.. خير؟!»، «مفيش.. عايزة أطلع تبع الحكومة أشتغل متيرة منزل في السعودية وبالمرة أضرب لي عمرة».

عندما وقعت من على الكنبة غارقًا في الضحك اكتشفت أنني لم أكن منفردًا بأم هند لأنني وجدت زوجتي على الأرض هي الأخرى وقد وقعت من الضحك الذي لم يقطعه إلا إجهاش أم هند

بالبكاء: «إيه مستكترين عليَّ إن ربنا يكرمني وأعمل قرشين لهند واخواتها.. هفضل شغالة عندكو سخرة لحد ما اموت»، نظرت إلى زوجتي وقد أسقط في يدي، فردت إليَّ الجبانة نظرة ترجمتها على الفور «مع نفسك خالص»، فيما بعد قالت لي زوجتي إن ذلك لم يكن جبنًا بقدر ما كان احترامًا منها لكون ملف أم هند دائمًا من تخصصي.
قررت أن أبدأ كلامي مع أم هند من أتفه مدخل على الإطلاق، على أساس أن تفاهته ستجعله يرشق لا محالة في دماغ أم هند: «بصي بقى يا أم هند إنتي مش هتقدري تشتغلي في السعودية.. أصلهم هناك ما يعرفوش حكاية متيرة منزل دي..هينادوكي يا خدامة وانتي بتزعلي أساسًا لما حد بيغلط ويقول عليكي شغالة». لم أتوقع ردها المباغت: «يا خويا لو هتديني ألفين جنيه في الشهر قول لي يا بنت الصرمة». ضحكت ضحكة سرعان ما قطمتُها لكي لا تغضب مجربًا مدخل الحنية بعد أن فشل مدخل التفاهة: «يا أم هند حد برضه يتغرب عن بلده عشان الفلوس؟!»، نظرت إليَّ بقسوة غير معهودة وقالت: «وحد برضه يتغرب في بلده من غير فلوس؟!».
آه. لن تكون إدارة الحوار سهلة مع أم هند كما توقعت، لا مفر من أن أجيب من الآخر إذن: «بس إنتي يا أم هند لو سافرتي هتكوني لوحدك وممكن حد والعياذ بالله يعمل فيكي حاجة وحشة». مَنْ لقن هذه القصيرة المكيرة ردودًا كهذا الرد الساحق الماحق: «هيكون أوحش من اللي بيعمله فينا الفقر؟!». أوجعني ردها فلم أجد ما أقوله مطلقًا، أطلقت أم هند تنهيدة غير متسقة مع حجم قفصها الصدري ثم قالت: «أما لو كان قصدك على الحاجات الوحشة القبيحة فزي ما انت شايف أنا خلاص ما عادش فيَّ رجا.. يمكن لو الكلام ده قبل عشر سنين قبل ما أبو هند يموت ما كنتش إنت نفسك تعتقني.. ما تزعليش مني يا مدام.. بس خلاص راحت علينا.. إللي هيفكر يعمل فيَّ حاجة وحشة هَيئْذي نفسه.. قلت إيه يا أستاذ؟»، ماذا أقول يا أم هند؟ لن يجدي حديث العقل معك ببصلة، فلأجرب حديث العاطفة الوطنية لعله يجد إلى قلبك الغلف سبيلا:
«لازم تعرفي يا أم هند إنك مش شوية.. إنتي بنت مصر يا أم هند.. إنتي بنت إيزيس ونفرتيتي وكليوباترا وشجرة الدر وهدى شعراوي ونبوية موسى وصفية زغلول.. إزاي تنسي كل دول وتروحي تشتغلي في بيوت ناس غريبة وتذلي اسم مصر؟!».
أم هند نَفَسْها في الجدال طويل اليوم: «لو فرضنا إن أنا بنت اللي بتقول عليهم دول ولو إني ولا اعرف جنس مَرَة فيهم.. هو يعني أنا لا مؤاخذة لما أشتغل في بيتكو وأمسح وراكو أبقى بارفع اسم مصر».
فتح الله على زوجتي بكلمتين حلوتين أخيرًا: «أيوه إحنا مصريين زي بعض ولما نخدم بعض ما فيهاش حاجة.. إنتي لو تعبتي لا سمح الله وقلتي لي آجي أساعدك في البيت.. مش هتأخر». لم تقدر أم هند هذا الموقف النبيل فقالت بشراسة: «طب ما تساعدي نفسك الأول يا مدام»، ثم استدركت قبل أن تغادر زوجتي الغرفة غاضبة: «ما تآخذينيش يا بنتي أصل أنا فايض بيا.. مش فاهمة إنتو ليه مش عايزين تساعدوني بدل ما انا مدفونة بالحيا أنا وولادي.. هو حرام إننا نقب على وش الدنيا ونعيش زي ما انتو عايشين.. ولا احنا مش مكتوب علينا التوبة من خدمة البيوت!». لم يعد مطلوبًا مني أن أقنع أم هند وحدها بالتوقف عن البكاء، عليَّ أن أوقف بكاء زوجتي وأمنع نفسي قبل كل هذا من البكاء.
فجرت العواطف الجياشة شلال كلمات تدفق من قلبي فظننته واصلا لا محالة إلى قلب أم هند: «بصي يا أم هند.. صلي على حضرة النبي..أنا عايزك تهدي وتسمعي كلامي كويس.. موضوع الشغل في السعودية ده مش هيكمل من الحكومة أساسًا.. عشان الجرايد عملت عليها حملة عشان

ما يصحش ستات مصر بجلالة قدرها يخدموا في بيوت السعودية». جاء صوتها مختنقًا بدموع حقيقية فأنا أعرف دموعها الزائفة جيدًا: «وهي الجرايد عايزة تقطع عيشنا ليه بس؟»، قلت والدم ينتفض في عروقي انتفاضة مشاعر مشاهد غيور يتداخل تليفونيّا ببرنامج العاشرة مساء: «يا أم هند الجرايد مش عايزة تقطع عيش حد.. الجرايد باكية على مصر وعلى حالها.. مصر يا أم هند بلد كبيرة.. سيبك من الكام سنة اللي ما يعلم بيهم إلا ربنا اللي عشت أنا وانتي فيهم.. مصر عمرها سبعتلاف سنة وأكبر من أيامنا الصغيرة دي بكتير.. مصر دايمًا كانت بتصدر للعرب مدرسين ينوروا العقول ودكاترة يداووا ويطيبوا ومهندسين يعمروا الصحرا وعمال إيديهم تتلف في حرير.. ما يصحش تيجي على آخر الزمن تطلع ستات تشتغل في البيوت.. ممكن دول زي الفلبين وسريلانكا والصومال تعمل ده عشان دي بلاد ما عندهاش نفس حضارتنا ولا نفس تاريخنا.. إحنا نجوع ونفتقر بس نفضل بكرامتنا لأن دي الحاجة الوحيدة اللي حيلتنا ويا رب نعرف نكمل بيها الكام سنة الجايين.. الله يلعن اللي خلّوا خير بلدنا يروح لغير ولادها.. الله يلعن اللي خلانا كلنا نخدم بره بلادنا حكام ومحكومين.. الله يلعن أبو اللي غلّا العيشة ورخَّص اللي عايشينها.. بصي يا أم هند فيه مثل عربي لازم أقوله لك.. هو يبان قبيح شوية بس لو فكرتي فيه كويس هتلاقيه يفسر لك كلامي كويس قوي.. المثل بيقول تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها.. قارياني يا أم هند ولا لأ؟»، صمتت برهة كأنها تقلب المثل في رأسها ثم ابتسمت فجأة وقالت كاشفة عن أسنانها المصفرة: «طب لو الحرة جالها الخبيث وشالتهم تعمل إيه ساعتها؟»، نظرت إلينا متوقعة أن نضحك لكننا لم نرَ في كلامها ما يضحك البتة، زوجتي أشاحت بوجهها متألمة بينما صرخت أنا في الولية معدومة الإحساس والفهم: «إنتي هتهزري يا ولية انتي؟! بصي انتي الكلام مش هيجيب نتيجة معاكي.. الحق عليَّ إني احترمتك.. لو عايزة تسافري براحتك بس مش هيبقى عن طريقي.. يلَّا قومي شوفي اللي وراكي وما تقلبيش دماغي».
خرجت أم هند من الغرفة مكبوسة وتركتني أنا وزوجتي نصارع مشاعر الندم والأسى، لم نجد ما نقوله لبعضنا، ساد صمت ثقيل قطعناه بقرار الاعتذار للولية التي حمَّلنا عقلَها العشوائي ما لا طاقة له به، الخلاف بيننا كان هل نناديها أم نذهب إليها، والخلاف قطعه دخولها وقد طأطأت رأسها واحولت عيناها أكثر ووضعت يدها على ما يفترض أنه وسطها ثم قالت بصوت خفيض لم نعهده منها: «بص يا باشا أنا فكرت في كلامك ولقيت عندك حق.. أنا ما ارضاش لبلدي البهدلة أبدًا.. دا مصر دي لو تلزمها عينيا أديها لها». قبل أن ننال الفرصة لنشكرها ونطلب منها أن تحتفظ بعينيها لنفسها باغتتنا من جديد: «ممكن بقى تشوفوا لي سكة آخد بيها الجنسية الفلبينية؟».

وصلة الدقروري

لولا الوصلة المسروقة لما كان سيد الدقروري قد أجهش بالبكاء في تلك الليلة الليلاء.

بصوت عال رجَّ القهوة طالبنا سيد جميعًا أن نحمد الله ونقدر النعمة اللي عايشين فيها. حلفنا ألا نفعل إلا لما يفسر كلامه الأول، فحكى لنا عن البرنامج الفضائي الذي شاهده وهو يقلب قنوات الوصلة باحثًا لأغراض دنيئة عن أغنية «أنا دانا أنا دندن» أكثر الأغاني الخليعة انتشارًا وقتها، لكن الله أوقع ذلك البرنامج في سكَّته ليستمع فيه إلى معاناة عدد من أبناء الوطن كانوا يبثون لواعج الشكوى لعدم تمكنهم من حضور حفلة المطربة الكولومبية العالمية «الوتكة» شاكيرا تحت سفح الهرم، وهي الحفلة التي دفعوا فيها من دم قلبهم وقوت عيالهم ٧٠٠ جنيه ينطح جنيه.

بكى الدقروري فوق صدر علي هيموكلار ـ نسبة إلى المرهم الشهير الذي أدمن شمه ـ وهو يحكي لنا كيف قطعت قلبه شكوى إحدى الفاتنات من مشاهدات البرنامج: «يا جماعة إزاي أتحبس في عربيتي من ستة لغاية واحدة وأنا باسمع شاكيرا تغني من بعيد ومش قادرة أخش الحفلة!»، في حين شكا شاب طُلَعة أنه لحق أغنية واحدة فقط قبل أن يعود إلى «ماسر الجتيتة» خالي الوفاض من أحلامه بمشاهدة ارتجاجات شاكيرا وملحقاتها التي يقال إن لجنة أثرية تدرس الآن مدى انعكاسها على أعضاء أبي الهول الذي كسرت أنفه قبل مجيء شاكيرا «لعنة الانتظار الطويل».

كان الدقروري متأثرًا بالبرنامج إلى حد أنه أعاد لنا تجسيد شكوى سيدة هاي من خلل اجتماعي حدث في ليلة شاكيرا الليلاء عندما قام الكادحون الذين دفعوا ربعميت جنيه بس بالدخول إلى مكان الناس الكلاس الذين دفعوا سبعمية، بينما اضطر أهل السبعمية لحضور الحفلة من مكان أهل الربعمية، وهو ما أحدث لهم أضرارًا نفسية فادحة، فجأة قال سيد المتهان ـ الذي حمل هذا اللقب بعد زيارة إجبارية للنقطة ـ «أضرار فاتحة إيه..بقى اللي معاه ربعمية جنيه كخة يا بلد واكلة ناسها.. إن شاء الله لعنة الفراعمة هتحل على بتوع الربعمية والسبعمية»، غضب الدقروري من كلام المتهان متهمًا إياه بالحقد الأسود، قائلا له إن كسرة قلب اللي معاه ألعن من كسرة قلب اللي ما معاهوش، وعندما قال مأمون النصبجي: «برضه يا دقروري.. على رأي عم الشيخ إذا اغتنيتم غنى فاحشًا في بلد مش لاقية تاكل فاستتروا». قال الدقروري بحماس لم نعهد له مثيلا: «يا اخوانّا ربنا خلق الناس درجات وما ينفعش اللي قطع تالتة يقعد في أولى ولا اللي قطع أولى مكيف يقعد في تانية عادية مع إن كله بيموت لما القطر يعمل حادثة بس ربنا خلق الدنيا كده ومش هنعترض».

لم يكن أحد منا راغبًا في مناقشة الدقروري الذي كان عين الكثيرين منا على العالم خاصة وأغلبنا بحكم البطالة لا يمتلك حق مسك الريموت بيده النجسة، بينما الدقروري يعيش لوحده في شقة العائلة بعد أن ولَّعتْ أمه في نفسها بجاز بعد هجرة أبيه الداخلية إلى «أبو قرقاص».

كان اسم الدقروري قد التصق به برغم تبطيله من مدة عادة الالتصاق المرذولة في الأتوبيسات، لا لأسباب أخلاقية بل لارتفاع سعر تذكرة الأتوبيس وكون العملية ما عادتش جايبة همها، ثالثا وهو الأهم أنه لم يعد أحد من الملتصق بهم يمانع في الالتصاق ولا يبدي اعتراضًا عليه زي زمان مما يفقد الحكاية متعتها وجدواها.

بعد تلك الليلة بليلتين أحدث الدقروري حراكًا سياسيّا في الحتة كلها عندما قال لنا فجأة إنه سيتقدم إلى مسابقة مستر إيجيبت التي تنظمها قناة ميلودي التي علق عم نظمي الموظف بالمعاش وأكثرنا اطلاعًا على مجريات الأمور، بأنها قناة مملوكة لحفيد جمال عبد الناصر الذي عاش حياته على

حد تعبير عم نظمي: «يدعونا لأن نلبس مما نصنع ويعيش حفيده حياته الآن ليدعونا أن نقلع ما نلبس».
على الفور اشتبك عم برسوم مع عم نظمي قائلا إن كلامه «فيه ريحة مش كويسة»، لم يكن رفض عم برسوم لتلقيح عم نظمي غريبًا فقد كان عم برسوم عضوًا بالتنظيم الطليعي ولم يتركه إلا بعد أن طلع على رجله ميني باص فأعاقه عن الحركة، أنهى حسن بوكسر المناقشة مؤكدًا أنه لا وقت للخلافات السياسية الآن، وأنَّ على الكل أن يقف صفًّا واحدًا للتصويت للدقروري الذي لا بد أن نتلم كلنا وراه، لتكون هذه المرة الأولى في حياة الدقروري التي يكون أحد وراه ولا يكون هو ورا أحد.
وحدها الصدفة فسرت لنا بعد أيام سر حماس الدقروري للاشتراك في مسابقة كمسابقة مستر إيجيبت، عندما أحضر لنا عم نظمي جرنانًا ذائع الانتشار نُشر به إعلان عن المسابقة يتضمن عنوان المكان الذي سيتجمع فيه الراغبون في الاشتراك لنقلهم مجانًا إلى مقر المسابقة.. بالأتوبيسات.

الأولاد سيضيعون يا صديقي

صديق عمري الذي يعلم قدراتي الخارقة في الكذب قصدني بالأمس في خدمة لم أكن أتوقعها أبدًا. عندما طلب مني والدموع تترقرق في عينيه أن أساعده على ضمان مستقبل أولاده الصغار، أخذت بسرعة مكوكية أفكر في كذبة للتهرب من دفع المبلغ الذي سيطلبه لشراء شقة لأولاده، لكنه فاجأني قبل أن أطلق كذبتي التي كدت أحبكها بأنه لا يطلب لهم مني متاعًا ولا عقارًا، بل يطلب فقط أن أعلم أبناءه الكذب.

شكا لي الرجل وهو يغالب رغبة مريرة في البكاء أن أولاده مهددون بالضياع، تسألهم أين اختفى الريموت كونترول فيدلونك على مكانه طواعية، قابليتهم للإقرار بالذنب مرتفعة للغاية، الورع المبكر يجعلهم يفعلون ذلك أحيانًا قبل اكتشاف ذنبهم، لا يقسمون لك أنهم شربوا اللبن بل يأخذونك ببراءة لكي ترى المكان الذي تعودوا أن يدلقوه فيه، دائمًا تنعقد ألسنتهم لما تطلب منهم أن يقولوا لمحصل النور إن بابا في الشغل، أو عندما ترجوهم أن يقولوا لجدهم صاحب الزيارات المفاجئة إن بابا «مريح جوه حبتين»، أو حين تتوسل إليهم ألا يقولوا لأمهم إن بابا تفرج معنا اليوم على أغنية بوس الواوا.

«الأولاد سيضيعون يا صديقي، بحالتهم هذه لن يصبح أحدهم يومًا حاكمًا تاريخيًا أو رئيس برلمان مخضرمًا أو وزيرًا سياديًا أو حتى قارئ نشرة، لا أطلب منك إحسانا يا صديقي، فقط علمهم صنعة الكذب واتركني أرميهم مطمئنًا في بحر الحياة».

أي ورطة هذه؟! هل أقول له إن الكذب حرام وليس له رجلين وحبله قصير؟! الرجل في بيتي ولو رد عليَّ بصوت منغم لا يليق بحرمة البيت، سيضطرني لأن أغلط فيه، وسيعلو صوتنا ليجذب انتباه زوجتي التي لو سمعته وهو يذكرني بنماذج منتقاة من كذبي، سأكون في ورطة حقيقية لأنني سأكون مطالبا بإقناعها أنني توقفت عن الكذب يوم أحببتها، لو كان ذلك كذبًا لما كانت هناك مشكلة، لكن المشكلة أنه حقيقي ولذلك سأكون مرتبكًا وأنا أقوله وسيدخل الشيطان بيننا ويتخرب بيتي بسبب الصدق بعد أن ظل متماسكًا دائمًا بفضل الكذب، ليس أمامي الآن سوى مجاراته حتى يخرج هو والشيطان من البيت وعندها لكل حدث حديث.

عندما طلبت منه أن يدع القلق ويبدأ الحياة لأنني سأحول أولاده بعون الله وفي زمن قياسي إلى وزراء إعلام، نظر في عيني نظرة فلاح لإخوانه في ساعة الري متضرعًا: «إوعى تكون بتكذب عليَّ»، ولأنني كنت أكذب فقد صدقني ونزل مطمئنًا، عندما سألتني زوجتي عما كان يريده قلت لها وأنا أنسل مجددًا في بيجامتي: «عايزني أدي ولاده دروس تربية قومية»، وهي صدقت طبعًا لأنني كنت السبب دائمًا في حصول أبنائنا على الدرجات النهائية في التربية القومية.

لم أكن أعلم أن العيش المشترك بيننا كل تلك السنين سيجعل صديقي أوعى مني بكثير، في الصباح وأنا أدعك عيني مخضوضًا رأيته من خلف العماص على بسطة السلم محتضنًا أبناءه الذين بكوا حتى اخضلت ياقاتهم وانهمرت سوائل شتى من وجوههم: «مش عايزين نضيع يا عمو.. عايزين نبقى كذابين زي ولادك.. ابنك هيثم كَل الكونو بتاعي قدامي وأقنعني إن الشمس سيحته.. ملعون أبو الصدق اللي جايب لنا التذنيب واستدعاء ولي الأمر كل يوم والتاني».

بالعافية صرفته، وأولاده بعد أن اضطررت لأقسم برغيف عيش سن على عيني إني سأعلمهم ما لم أعلمه حتى لأبنائي فلذات كذبي. المدام نومها ثقيل ولذلك صدقت أنني كنت أقضي كل ذلك

الوقت على الباب في التبرع بالدم، لكن من يضمن أن يعدي الأمر دائمًا على خير. سأعلم إذن أولاد المركوب كل ما أعرفه عن الكذب لكي لا يخربوا بيتي بزيارات مفاجئة كهذه.

صديقي المسعور لن يصدق أنني الآن في ورطة حقيقية، كونك كذابًا عتيدًا لا يجعلك ماهرًا في تعليمه، فكم من رءوس حربة فشلوا كمدربين، أنا أصلا لم أتعلم الكذب، ولم أعلمه لأولادي، أمي رحمها الله كانت تقول إن الكذب يجري في دمنا لأننا ورثناه عن أبي الفقيه الدستوري البارز، كان الكذب هبة لم نسعَ إليها، فكيف نُكسبها لغيرنا؟!

ليس أمامي الآن سوى أن أشتري نفسي وأقبل ما فرضه القدر عليَّ. أدخل إلى المكتبة لأعد نفسي للمهمة الثقيلة بقراءة كل ما تركه الوالد من دراسات ومقالات وتصريحات وقوانين، يغمرني انبهار عميق فأشعر بضآلة مهولة أمام تجربته، بعد ساعات أفيق على تليفون من صديقي يستعوقني: «الولاد جاهزين بالكشاكيل ومستنيينك». أنظر إلى التلفزيون الذي يذيع خطابًا رئاسيّا تاريخيّا، أقول له بحماس: «على ما آجي لك خلي الولاد يفتحوا التلفزيون ويتفرجوا». ثم أغلق السماعة وأستعين على الشقا بروح أبي ألف رحمة ونور عليه.

النصبجي والكاشيرجي

لم أكن أريد أن أكون سببًا في إشعال الفتنة بينهما في هذا الوقت المتأخر من الليل. كل ما كنت أريده هو علبتان ممتلئتان حتى حوافيهما بالعدس الساخن تصحبهما أكياس العيش المحمص والبصل الفائح الفواح والبتنجان المقلي والليمون معصفره ومعصوره. وكلها مفردات كافية لأن تطلب معي عدسًا في الثانية بعد منتصف هذه الليلة التي لن يقرص بردها القارس إلا العدس.

أعرف هذا المطعم جيدًا، منذ أن بدأ مزاولة نشاطه في محل صغير في ذلك الشارع العريق من شوارع وسط البلد، كنا نجد فيه أنسنا بالطبيخ الذي افتقدناه منذ تركنا بيوت أهالينا وجئنا إلى القاهرة لنعيش في غرفها المقبضة ونحلم بأن يكون لكل منا فيها بيت مليء بالطبيخ والعفش النضيف والضحكات والرقة والحنية.

لم يعد الآن مطعمًا صغيرًا أشبه بالزنقور، توسع بعد أن اشترى المحلين المجاورين له وأصبح له أكثر من فرع في المنطقة، مما أراه يبدو أنه فقد خصوصيته ودفئه، لكن لنأمل ألا يكون قد فقد طعم عدسه الساحر أيضًا.

قطعت تداعي الذكريات لأسأل عن سر تأخر العدس، قال لي الواقف مكفهرًا خلف النصبة إن العدس الذي لديه نفد وإنه بعث أحدًا ليأتي بعدس طازة من المخزن، وعدتني كلمة طازة بوعود كثيرة زكية الرائحة شهية المذاق صفراء فاقع لونها تسر الناظرين.

فجأة بدأ التصعيد قويًا من الواقف مكفهرًا خلف الكاشير ـ لم يكن في المطعم سواهما ـ قال للمكفهر خلف النصبة: «مش المفروض قبل ما تبعت حد المخزن تستأذني».

آه.. إذن هناك تراتب وظيفي في المحل تم تخطيه، لم يبدُ على المكفهر خلف النصبة أنه مقتنع بهذا التراتب، ربما لتقارب الاثنين سنًا وحجمًا ولبسًا، قال له بغلظة: «هو أنا كنت باعته يجيب لي سجاير!! أنا باعته يجيب حاجة للمحل». كانت الإجابة منطقية لكنها لم تقنع المكفهر خلف الكاشير الذي أحرج مما اعتبره ردًا وقحًا، قال له: «برضه المفروض تقول لي عشان أنا مش قاعد هنا طرطور.. أنا لازم أعرف كل كبيرة وصغيرة في المحل». ندت عن المكفهر خلف الكاشير نغمة شائعة في مثل هذه الحالات أتبعها بجملة ساخرة: «ليه يعني وزير داخلية المحل.. إهدا بس لايطق لك عرق». لم يعد مجديًا أن أظهر تجاهلي للخناقة وعدم اكتراثي بها، فالذي قيل الآن أسقط هيبة المكفهر خلف الكاشير بشكل علني، وصار لا بد أن يرد اعتباره أمامي وقبل ذلك أمام نفسه، اندفع واقفًا من خلف الكاشير ومتجهًا إلى صاحب النصبة الذي زال اكفهراره وحل محله ابتسامة غيظ تغيظ، كان قد بدأ في غسيل النصبة بالماء والصابون متصنعًا الاهتمام ومشيحًا بوجهه عن المكفهر الذي لم يعد خلف الكاشير، «احترم نفسك يا حسين وما تخلينيش أغلط فيك... لما اقولك ما تبعتش حد إلا لما تقولي يبقى ما تبعتش حد.. دي سياستي في المحل لو مش عاجباك ابقى...»، التفتُّ أنا وحسين النصبجي إليه لكي نشاهد بأعيننا كمالة جملة التهديد التي لم يكن الموقف يتطلبها، ربما جاء تركيزنا معه ليقلل من حدته فجأة ويكمل: «ابقى اشتكي للحاج علي».

ياه لا زال الحاج علي حيًا إذن وبصحة تساعده على تلقي الشكاوى الخاصة بالصراع على السلطة في محله، ليس ذلك فحسب، بل لا زالت مقاليد الأمور بيده برغم تعدد محلاته وتصاعد أرباحه، لم يوكل بعد نائبًا يمكنه أن يحسم أي صراع بين النصبجي أو الكاشيرجي، هل هذا هو سر نجاح الحاج علي، أنه يتبع الخلطة المصرية في التكويش على السلطة كاملة دون الحاجة لمساعدين أو مستشارين، هذا شأنه بالطبع فمن حكم في ماله فما ظلم، لكنه ربما لم يدرك أن تكويشه على اتخاذ

القرار في نفس الوقت الذي تحتم عليه أشغاله المتعددة أن يبتعد عن موقع الحدث سيشجع دائمًا على مزيد من الشقاقات والصراعات بين العاملين لديه، خاصة وهو لم يضع آلية سليمة فيما يبدو لتوزيع الاختصاصات والسلطات بينهم.
هل أقحم السياسة ـ بحكم ميولي ـ رغمًا عنها في صراع بين نصبجي وكاشيرجي، ربما، لكن هكذا بدا لي الأمر عندما استدار النصبجي ليواجه الكاشيرجي وقد اختفت من على وجهه ابتسامة الغيظ لتحل محلها غضبة مليئة بالتحدي: «طبعا هشتكي للحاج علي، وهو يشوف مين فينا اللي عارف شغله كويس وعامل حس للمطعم ومين اللي ذمته خربانة.. وكل واحد يعرف حسابه».
الله يلعن أبو العدس الذي يذل الإنسان ويجعله طرفًا في خناقة كهذه، لماذا اتسحبت من لساني وتدخلت وقلت لهم: «يا اخوانّا صلوا على النبي.. الموضوع مش مستاهل»، لماذا لم أخرس وأنتظر عدسي وأرحل، بدلا من أن يقول لي الكاشيرجي الحقير: «والنبي يا أستاذ خليك في حالك.. وسيبني أتعامل مع الأشكال دي».
«الله يحرقكوا إنتو الاتنين.. خلصوا أمي»، قلتها في سري فالمطعم ليس واسعًا لدرجة تسمح بالهروب سريعًا عند حدوث أي حركة غدر أو تحالف مفاجئ بين الاثنين. انتهى الكاشيرجي مني ليقترب أكثر من النصبجي قائلا له: «قصدك إيه باللي ذمته خربانة؟»، جاء الرد صاعقًا: «إنت فاهم قصدي كويس.. قصدي على البنات بتوع المحلات اللي بتفوت لهم في الحساب وبتديهم بونات أكل مش متسجلة على الكاشير.. خصوصا البت اللونة العريضة من تحت بتاعة محل الجزم». طالما دخلت في الموضوع بنت عريضة من تحت سيخسر هذان الرجلان بعضهما لفترة طويلة، يستحسن أن أنصرف.
«رايح فين يا أستاذ.. العدس على وصول».
«لا.. خلاص مالوش لازمة أنا اتأخرت».
«واحنا نشيل ذنبك ليه؟ ثواني وتاخد طلبك.. دا انت دافع فلوسه.. أصلك مش هينفع ترجعها».
«ومين قال اني عايزها؟! أنا هسيبكوا تتخانقوا براحتكو».
«ومين قالك اننا بنتخانق؟! ده هزار».
جاء تراجع الكاشيرجي مباغتًا ومهينًا خاصة أنه جاء مشفوعًا بابتسامة عريضة من تحت للنصبجي الذي أدرك تفوقه ونفاذ طعنته المفاجئة للكاشيرجي الذي لم يكن يدرك فيما يبدو أنه مفضوح إلى هذا الحد.
لم يكتفِ النصبجي الواطي بانتصاره الساحق على الكاشيرجي، الذي لم تشفع له سُلطاته الشفاهية المخول له بها من الحاج علي شخصيًا، شهوة النصر دفعت النصبجي للمزيد، كان قد انتهى من تصبين النصبة وغسلها، وبأوامر محددة ليس فيها شبهة مودة بدأ يطلب من الكاشيرجي حمل أطباق الطعام لرصّها على النصبة على ما يدخل إلى الحمام.
لم يعترض الكاشيرجي أبدًا، بدأ يفعل ذلك وهو يتوارى خلف ابتسامة باهتة، جزمت لي بكونه جامعيًا؛ لأن الإنسان المتعلم هو الذي يضعف بسهولة أمام بنت بائعة جزم عريضة من تحت، لم أشأ أن أتركه في حاله، سألته: «الأخ خريج إيه؟»، قال وهو يضع طبق البتنجان على النصبة: «تفرق معاك في حاجة؟»، هممت أن أذكره بالعريضة من تحت، لكنني أشفقت عليه وآثرت الصمت، أحسَّ بغلاسته فقال لي بهدوء: «خريج تجارة.. شايف الخيبة؟!»، لم أجد تعليقًا مناسبًا فقد كانت فعلا خيبة عريضة ليس من تحت فقط بل من كل الجهات. اكتفيت بالصمت، خرج النصبجي من داخل المحل وهو يجفف يديه ناظرًا بإعجاب إلى ما قام به الكاشيرجي، كان قد رمى

أذنًا وهو بالداخل، قالها بكل وطنية: «الحمد لله إن الواحد ما كملش تعليمه كان زمانه اتقهر زيك». نظرت إليه بكل الاحتقار المتوفر لديّ وهممت أن أشكه كلمة توجعه لكني خفت أن يغافلني ويبصق في العدس الذي كان قد وصل لتوه من المخزن، نظرت إلى الكاشيرجي الذي دفن رأسه في الكاشير وبدأ يجري حسابات أحسبها وهمية لمنع نفسه من توسيع الموضوع.

خرجت بعدسي وليموني وبصلي وبتنجاني تاركًا المحل الذي يتأجج بمشاعر الكراهية بين اثنين من الغلابة اختارا أن ينكئا جراح بعضيهما بدلا من أن يستعينا على قضاء حياتهما باللطافة وحسن الصحبة.

«يا سلام وما الغريب فيما حدث.. أليس هذا هو حال الغلابة من أبناء بلادنا الذين يتفننون في سحق بعضهم البعض تعويضًا عن سحق الحرامية الكبار لهم، يتصارعون على السلطة في محلات العدس ومصانع بير السلم والورش المتواضعة الحال ومدارس الحكومة ومستشفيات التأمين الصحي تاركين أمر السلطة التي تقهرهم لرب العزة يدبرها بمعرفته؟!»، هكذا قال لي صديقي الناشط السياسي المتودك بعد أن حكيت له ما شاهدته، بعد أن انتهى من تحليله السياسي قال لي إنه عازم على أن يذهب إلى المحل في الغد، ليس لأنه يحب العدس فهو يكرهه كره العمى، وإنما لكي يبحث عن بائعة محل الجزم إياها، ليس ليدرك كيف حسمت غيابيّا صراع السلطة في محل الحاج علي بتاع العدس، بل ليدرك إلى أي مدى هي عريضة من تحت!

كشكول الأمل

حتى الآن لم يفهم أحد منا لماذا ضَيَّع عم غمراوي نفسه مجددًا.

كنا يومها ككل يوم آخر نجلس على القهوة، نحن والكراسي المتراقصة تحتنا وزهر الطاولات الذي لم تعد معالمه باينة ومع ذلك لا ينقطع لعبنا به ولا غشنا فيه، ونشارة الخشب المختلطة بالقاذورات والتي لا يغيرها صاحب القهوة أبدًا لأن «الحديد سعره غلي»، والترابيزات المتهالكة التي يسندها كل منا بركبته لكي لا تقع علينا بما عليها من مشاريب «واقعة»، والشيَش التي امتلأت بماء آسن تلعب فيه الديدان أمامنا كرة الماء، وأكياس المعسل التي يغشها عرفة النصبجي نصب أعيننا لأنه «راجل وما بيخافش من حد»، والمراوح السقف التي أوشكت على الخروج من سقفها، والحلبة الحصى اسمًا وفعلا، وأكواب الشاي بالحليب المشكوك في كونه من مصدر حيواني أم إنساني، والتلفزيون المفتوح دائمًا وأبدًا على القناة الأولى لعطل فني أصابه بعد أن خلط عم كرم المونون حبتين بينه وبين بيت الأدب المجاور فعملها عليه ثم شد الإيريال واستغرب جدّا لأنه لم ينزل منه ماء.

يومها كان عم غمراوي يجلس في مجلسه المعتاد تحت التلفزيون الذي تم نقله إلى مكان عال لحمايته من الخبث والخبائث، كان متسمرًا كعادته أمام الشاشة بعد أن كلفناه مقابل تحمل ثمن مشاريبه بتنبيهنا إلى موعد بدء الماتش الذي كنا نعلم جميعًا أنه يذاع على القناة الثانية، وما كان تكليفنا له بتلك المهمة المستحيلة إلا رغبة دنيئة منا في أن يحرمنا من قوة ملاحظته لما نمارسه بتلذذ من فنون قرص الزهر وسرقة حجارة الدمنة وتخبئة أوراق الكوتشينة، والرجل بصراحة لم يكن يغضب أبدًا من قضائه الساعات الطوال في انتظار ماتش لا يجيء، لأن النوم كان عادة يغلبه بعد أول ثلاث ساعات من الانتظار.

يومها شاء حظنا وحظه العثر أن يقطع إرسال القناة الأولى فجأة وتنتقل كاميراتها على الهواء مباشرة لنقل جلسة تاريخية لعلية القوم، لو تنبه أحد منا بذلك لفصلنا فيشة التلفزيون وأرحنا واسترحنا، لكن السِّكينة سرقتنا فلم نفق إلا على عم غمراوي وهو يتنطر من جلسته واقفًا على كرسيه ومشيرًا بأصبعه إلى شاشة التلفزيون وهو يهتف مرارًا وتكرارًا: «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت؟!».

كلنا هجمنا لإسكات عم غمراوي، لا عن خوف عليه من مغبة ما يقوله أمام الله فنحن نعلم أن الله جل في علاه غفور رحيم، على عكس ضابط النقطة الذي كان دائمًا يقول لنا: «إنتو فاكريني ربنا.. أنا بشر ضعيف وعشان كده هطلَّع (...) أمكو».

كنا ملهوفين على حماية عم غمراوي من الغلط لأننا كنا نحبه حبّا جما، ولم يكن أحد منا يريد له أن يعود ثانية إلى مستشفى الأمراض العقلية التي لم يكن قد مضى على خروجه منها سوى شهر يا دوب، بعد أن قضى في غياهبها عامًا ونصفًا من العلاج بالكهرباء جعل كثيرين منا يمتنعون عن مصافحته بعد الوضوء لأن عم غمراوي بقى بيكهرب.

كان عم غمراوي موظفًا محترمًا في شركة محترمة، وكان يمكن أن يظل محترمًا مثل الشركة لولا أن الله ابتلاه ببلاء لم يكن على البال ولا على الخاطر، أس بلائه أن الرجل كان يصدق الصفحة الأولى من الجرنان، في مناقشاته المحتدمة مع أراذل حارتنا من المتشائمين، كان دائمًا يتحلى بتفاؤل يستند فيه على مبدأ غريب لا ندري من أين جاء به، هو أن الصفحة الأولى من الجرنان لا تكذب أبدًا بعكس باقي الصفحات.

كل يوم كان عم غمراوي يخصص ساعة بعد الضهر لتأمل الصفحة الأولى من الجرنان بعناية فلا يترك فيها سطرًا إلا وقرأه مثنى وثلاث ورباع، قبل أن يفرغ كل ما بالصفحة من أرقام ترد في تصريحات كبار المسئولين، في كشكول كبير جلَّده بصورة ملونة مصقولة للرئيس كانت قد نزلت هدية مع مجلة حريتي، ثم كتب على المساحة الفارغة التي تعلو جبين سيادته بخط فلوماستر واضح اسمًا فريدًا أطلقه على الكشكول: «كشكول الأمل».

كلما شكا له أو أمامه أحد من شيء أخرج عم غمراوي الكشكول الذي كان يحتفظ به دائمًا في حقيبة جلدية ورثها عن المرحوم والده، ثم يبدأ في يقين المتصوفة بقراءة حاصل جمع أرقام المليارات التي تجنيها الحكومة وفرص العمل التي توفرها والشقق السكنية التي تبنيها والمصانع التي تفتتحها والمساعدات التي تخصصها لمحدودي الدخل.

لكن، وكما هي عادة الدهر، إقبال وإدبار، أدبر الدهر بغتة على عم غمراوي فأفقده الأمل في كشكول الأمل، عندما ذهب ذات صباح إلى شركته المحترمة ليتلقى قرارًا مصحوبًا بأسمى آيات الاحترام بإحالته إلى المعاش المبكر لأن الشركة المحترمة بيعت بعد أن اتضح أنها تخسر كشأن كل المحترمين في صمت، قل إن الصدمة كانت أشد مما يحتمل جهازه العصبي المرهف الحساسية، أو قل إنه الخوف من سخرية الشامتين به على القهوة هو الذي دفعه إلى أن يذهب في حركة غير محسوبة إلى بيت سيادة الرئيس، أيوه رئيس البلاد خبط لزق، ليقول للحرس الرئاسي المرتبك من مفاجئته به إنه يريد أن يسلم كشكول الأمل للريس مباشرة ويدًا بيد لكي يكشف له «الحرامية اللي بيسرقوا في البلد من وراه».

عندما اقتيد إلى جهة غير معلومة بعد أن مزقت الكلاب البوليسية الرئاسية كشكول أمله إلى مائتي حتة، لم يكف عم غمراوي عن ترديد أرقام الكشكول التي كان يحفظها صمّا، صارخًا في الجميع بين كل رقم وآخر أن الحسبة فيها «شيء مش مضبوط»، لأن حاصل جمع الأرقام التي نقلها عن السادة المسئولين خلال الربع قرن الذي مارس فيه هوايته يجعلنا أغنى من سويسرا وأسعد من أهل بغداد على زمان هارون الرشيد.

بعد أن داخ أهل عم غمراوي عليه في الأقسام والمستشفيات، أرشدهم إلى مكانه واحد معرفة «ماسك في بوفيه جهة أمنية حساسة»، وعندما نصحهم محام عُقر نكرة بأن يدفعوا بوجود خلل في قواه العقلية، دفعوا بذلك ثم دفعوا دم قلبهم بعد ذلك، وتمكنوا بالفعل من إدخاله إلى مستشفى الأمراض العقلية ليغيب فيها ما كتب الله له أن يغيبه، ثم يخرج فجأة بعد أن عض رئيسة وفد دولي زائر من منظمات حقوق الإنسان في جهة حساسة، ليضطر مسئولو المستشفى لإخراجه على مسئوليتهم حرصًا على علاقتهم الحساسة بالجهات المانحة.

عاد عم غمراوي إلى حارتنا أشلاء غمراوي، فين وفين لما يخرج من بيته ليجلس على القهوة، وإن جلس على القهوة يجلس عليها متهدمًا لا يكاد يبين، مرة فكَّرنا في مداعبته وسألناه عن كشكول الأمل فنقلت الإسعاف اثنين منا إلى المستشفى على مشارف التربنة، بعدها توقفنا عن الاقتراب من سيرة كشكول أمله بشرّ أو حتى بخير، سائلين الله أن يلطف بنا فيما جرت به المقادير.

كانت زوجته أقل صبرًا عليه منا للأسف الشديد، ففي بحر أسبوع فقط من خروجه، قامت وهي السيدة الفاضلة له بعد زواج أبنائهما، بطلب الطلاق منه بأسوأ طريقة ممكنة، عندما حررت له محضرًا في قسم البوليس لأنها فوجئت به قبل لقائهما الحميم يقرأ دعاء ركوب الدابة، في القسم كدنا يا دوب سننبري للدفاع عن الرجل، لكنه أحرجنا عندما نظر إلى الضابط وهتف: «الحمد لله

الذي عافانا مما ابتلى به كثيرًا من خلقه». كان الضابط ابن حلال عندما سمح لنا أن نعود به إلى البيت ليغير على جروحه التي أصابه بها العساكر الغيورون على ضابطهم، بعدها تطور الأمر عندما شهد سبعة من الجيران أنهم سمعوه يقرأ الدعاء فعلا قبل أن ترقع زوجته بالصوت.
بفضل شهادة الجيران أصبح موقف مدام سنية في القضية قويّا ونالت الطلاق بسهولة، خاصة أن أحدًا في القسم أو النيابة لم يسأل الجيران السبعة عن سر تركيزهم مع عم غمراوي الذي كان دائمًا مشهودًا له في الحارة بصلابة الموقف ومتانة الأداء، ثم لم يعد كذلك أبدًا، ولم تعد هي إلى بيته أبدًا مفضلة الإقامة لدى بنتها في التبين.
البنت بدورها كانت قد قاطعت أباها لأنه أحرجها أمام أهل زوجها عندما سب فجأة، وسط جمهور محطة الملك الصالح، مترو الأنفاق خط حلوان بالأب والأم متحديًّا المترو أن يرد.
رحلة طويلة خاضها عم غمراوي مع الأمل استعرضناها على القهوة بعد عودتنا من بيته الخالي عليه وحده، كنا قد أوصلناه ومددناه على فرشته وغنينا له حتى نام ثم تركناه ونحن نحمد الله لأن وقفته الغاضبة في القهوة عدِّت على خير دون أن يشهدها مخبر أشرّ أو يشم بها ضابط النقطة خبرًا، لكننا لم نكن نعلم أننا لن نلقى عم غمراوي بعد ليلتنا تلك.
في الصباح التالي عرفنا أنهم والعياذ بالله، من غير أن يفسر لنا الراوي من هم بالضبط، عكشوه في منطقة حساسة جدّا من البلد وهو يؤدي مارشا قتاليّا ويغني مشيرًا إلى المبنى الحساس جدّا قائلا بعزم ما فيه: «أخي جاوز الظالمون المدى.. فحق الجهاد وحق الفدا».
من ساعتها انقطعت أخبار عم غمراوي، ولم نعد نسمع كلمة الأمل ثانية أو حتى نطقها، لأن مجرد ذكرها كان يجدد أحزاننا عليه.

في شرفة سماوية

بالأمس شاهدتهم.
في شرفة سماوية فسيحة مطلة على مصر جلسوا يتسامرون.
نجيب محفوظ كان مستأنسًا بحضرة سعد زغلول يقرأ له بعضًا مما كتبه عنه، وسعد باشا كان محرجًا لأنه أقل بكثير من هذا الكلام، مشيرًا لنجيب إلى أحمد عرابي الذي يحتاج أكثر منه إلى كلمتين حلوتين تخففان مرارته الدائمة من الولس. عبد الفتاح القصري وبديع خيري وليلى مراد كانوا ميتين من الضحك على أحمد زكي الذي كان يقلد نجيب الريحاني والريحاني لم يزعل أبدًا ومن شدة انبساطه طلب من أحمد أن يعيد تقليد محمود المليجي لكي يغيظه مجددًا، سيد درويش كان مبسوطًا بلقاء بليغ حمدي لكنه أقسم له إنه لن يكمل كلامه معه إلا إذا ذهب ليحب على رأس محمد الموجي.
توفيق الحكيم كان مكسوفًا من عبد الناصر لكنه أقسم له إنه كان صادقًا في مودته كما كان صادقًا في عودة وعيه بعد ذلك. عبد الناصر لم يطوِّل معه في الكلام واختلى بعبد الحليم الذي كان مندهشًا لأنه بات ينزف مسكًا بدلا من الدم، عبد الناصر أشار له إلى مصر ثم قال له: «شفت واخداني الأماني لحد فين»،حليم لم يتقبل الدعابة، وعبد الناصر شعر بالإحراج وغيّر الموضوع طالبًا من حليم أن يتوسط له لدى صلاح جاهين الذي قال له فجأة وأمام الناس: «أيوه كنت أقصدك لما قلت يا طير يا عالي في السما طظ فيك.. ما تفتكرش ربنا مصطفيك»، عبد الحليم تهرَّب ورأى أن الموضوع صعب لأن صلاح شايل جامد، وطلب من ناصر أن يترك الأمور تأخذ وقتها.
الشيخ الغزالي الذي كان يجلس مستمعًا بنشوة إلى أم كلثوم وهي تغني القلب يعشق كل جميل، استأذن بهدوء لكي لا يقطع انسجام محمد عبده والأفغاني وفتحي رضوان وصالح سليم، وأخذ عبد الناصر من يده قائلا له: «عايز أقعدك مع حد»، وناصر وجد نفسه فجأة وجهًا لوجه أمام سيد قطب، الاثنان صافحا بعض بفتور بعد أن ذكَّرهما الغزالي أنهما في دار الحق. سيد قطب قال لعبد الناصر إن الأمر لم يكن يستحق الإعدام فرد ناصر بانفعال: «حط نفسك مكاني لو قالوا لك إن أحدًا يريد أن يفجر القناطر الخيرية»، وسيد صمت قليلا ثم قال مغمغمًا: «إن ناصر هو الذي بدأ بالغلط»، وعندما صمت عبد الناصر ابتسم سيد قطب قبل أن يقول له: «بصراحة ما كنتش متخيل إني هاشوفك هنا في الجنة»، ناصر ضحك بشدة وقال له: «شفت هذه هي المشكلة.. فاكر الجنة بتاعتك مع إننا كلنا الآن ننتظر الحساب»، سيد قطب هز رأسه محرجًا ثم ذهب ليجلس بجوار شهدي عطية الشافعي الذي قال له ضاحكا: «عاجبك كده؟! ناقص يجيبوا لنا حمزة البسيوني عشان تكمل».
عَلا الضحك من ركن يجلس فيه بيرم التونسي وفتحي قورة حيث كانا يرتجلان قصيدة حزينة ليثبتا لعبد الرحيم منصور أن كتابة النكد «مش صعبة يعني»، أمل دنقل وبهجت عثمان ضغطا على يوسف إدريس ليجلس مع نجيب محفوظ، يوسف استجاب لكنه لم يتمكن من منع نفسه من التنبيط قائلا لنجيب: «يعني ما جبتش نوبل معاك!»، ونجيب سريع البديهة رد على الفور: «قلت بلاش أضايقك وانت ميت كمان!»، والاثنان ضحكا بشدة وحضنا بعض. ويوسف قال لنجيب إن أصداء السيرة الذاتية كانت جامدة قوي. وعبد الوهاب غنى للجميع بناء على طلب سيد درويش: «حلم وصحيت منه لقيتني هايم في بحر الشوق وحدي.. حبيت ظالم يا ريته كان هناني».

من بعيد رأى الجميع السادات يتسلل محاولا الوصول إلى مكان لا يراه أحد، وعندما ذهب عبد الناصر إليه بخطى متحفزة تكهرب الجو وتأهب الجميع لفض خناقة عارمة، لكن ناصر اكتفى بوضع يده على كتفي السادات ثم أحنى رأسه إلى الأسفل وجعله يأخذ نظرة عميقة إلى مصر قبل أن يشخط فيه قائلا: «عاجبك اللي عملته ده؟»، رفع السادات رأسه وهو يفكر في رد مناسب لكنه عندما رأى نظرات السخط في عيون الجميع ابتسم ابتسامة ريفية ماكرة ثم قال: «الواحد صحيح سابق عصره بس مش معصوم من الخطأ». والكل ماتوا من الضحك، لكن مصر كانت غارقة في همها تنظر إليهم بأسى شديد.